وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف - المسيلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

محاضرات في مقياس العمران والمراكز الحضرية في الغرب الإسلامي

مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة أولى ماستر
تخصص تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط
السداسي الأول

إعداد: د.النذير قوادرية
أستاذ محاضر "أ"

الموسم الجامعي
1447-1448 هـ/2025-2026 م

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ: النذير قوادرية

الرتبة: أستاذ محاضر "أ"

الإيميل المهني: nadir.kouadria@univ-msila.dz

عنوان الماستر: تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط.

السداسي: الأول.

اسم الوحدة: استكشافية.

اسم المادة: العمران والمراكز الحضرية في الغرب الإسلامي.

الرصيد:1.

المعامل: 1.

1. أهداف التعليم:

- التعرف على التاريخ الحضاري للغرب الإسلامي.
- التعرف على أهم المنشئات العمرانية في الغرب الإسلامي.

2. المعارف المسبقة المطلوبة:

- معرفة تاريخ الغرب الإسلامي.
- معرفة تاريخ المدن وتخطيطها.

3. القدرات المكتسبة لدى الطالب من المقياس:

- التعرف على عمران الغرب الإسلامي.
- التعرف على أهم مدن الغرب الإسلامي.
- التعرف على العوامل المتحكمة في عمران الدول وخرابها.
- فهم العمران والتمييز بين العمارة والعمران.
- معرفة مختلف المفاهيم المتعلقة بالمدينة الإسلامية.
- استيعاب أسس العمران في الفكر الإسلامي وفي فكر ابن خلدون.
- فهم مراحل التطور العمراني والمعماري في المغرب الإسلامي والأندلس.
- الإلمام بالمصادر التاريخية والجغرافية والأثرية المتعلقة بالعمران الإسلامي .

- دراسة تأثير الكوارث الطبيعية والحروب والهجرات على تطور المدن أو تراجعها.
- التعرف على العلاقة بين العمران والتحولات الديموغرافية في الغرب الإسلامي .
- تعلم طريقة توظيف النصوص التاريخية والشواهد الأثرية في دراسة العمران.

4. أهمية دراسة مقياس العمران والمراكز الحضرية في الغرب الإسلامي.

- الحفاظ على التراث العمراني والمعماري الإسلامي لأنه يمثل الهوية الثقافية للحضارة الإسلامية.
- تطوير مهارة البحث والتحليل لدي الطالب عن طريق استخدام المصادر التاريخية والشواهد المادية في دراسة العمران والمراكز الحضرية.
- استيعاب الطالب لخصائص العمران الإسلامي في بلاد المغرب والأندلس.
- التعرف على عوامل نشأة العمران وازدهاره أو تراجعه.
- تحليل التطور الحضاري لبلاد المغرب والأندلس من خلال دراسة المنشآت العمرانية والمعمارية لأنها تعكس مختلف جوانب الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

5. الأهداف العامة للمقياس:

- التعرف على مفاهيم العمران والعمارة الإسلامية وأسسها الفكرية والحضارية.
- إبراز أهمية التوعية بالمحافظة على التراث الإسلامي وقيمته الحضارية.
- تطوير القدرات على استخدام المصادر التاريخية والشواهد الأثرية لدراسة العمران الإسلامي.
- التعريف بالمراكز الحضرية والمعمارية في الغرب الإسلامي.
- إبراز أهم العوامل المؤثرة في تطور العمران الإسلامي عبر مختلف الفترات التاريخية الوسيطية من النواحي السياسية والاجتماعية والبيئية والاقتصادية.
- إبراز تخطيط ووظائف وتطور المدن الإسلامية وتشكيلاتها العمرانية الرئيسية.

6. محتوى المقياس حسب مشروع التكوين canevas: يحتوي هذا المقياس على مجموعة من المحاضرات المتسلسلة بيداغوجيا، والتي تسمح للطالب باستيعاب أهم مصطلحات ومفاهيم المقياس بطريقة متدرجة وسلسة، وهي كما يلي:

- **(01):** مفهوم العمران والعمارة الإسلامية.
- **(02):** العمران في الفكر الإسلامي.
- **(03):** العمران في الفكر الخلدوني.
- **(04):** خصائص العمارة الإسلامية.
- **(05):** مراحل وخصائص التطور العمراني في المغرب الإسلامي من الفتح إلى العهد الفاطمي.
- **(06):** مراحل وخصائص التطور العمراني في الأندلس.
- **(07):** مراحل وخصائص التطور العمراني عند الفاطميين.
- **(08):** مراحل وخصائص التطور العمراني عند الزيريين والمرابطين والحماديين.
- **(09):** مراحل وخصائص التطور العمراني عند الموحدين.
- **(10):** مراحل وخصائص التطور العمراني عند الزيانيين والمرينيين والحفصيين.
- **(11):** تأثير الكوارث الطبيعية على العمران في الغرب الإسلامي.
- **(12):** الحروب والهجرات وأثرها على المدن.
- **(13):** هجرات العرب الهلالية وأثرها على المدن.
- **(14):** هجرات الأندلسيين وأثرها على المدن.
- **(15):** العمران والديموغرافيا في الغرب الإسلامي (مدن المغرب الأوسط نموذجا).
- **(16):** امتحان (تقييم المعارف المكتسبة) .

ملخص:

تستعرض هذه المطبوعة "مقياس العمران والمراكز الحضرية في الغرب الإسلامي"، وترمي إلى تعريف الطالب بمفاهيم العمران الإسلامي ومراحل تطوره، خلال العصر الوسيط، عن طريق المزاوجة بين الدراسة التاريخية والتحليلية للعمران، كما تبرز المفاهيم والأسس الفقهية والفكرية للعمران الإسلامي، والتي بدورها تحكمت في تنظيم وتخطيط المدن الإسلامية ومرافقها العامة.

وكذا دراسة نماذج عمرانية معروفة، وإبراز العوامل المختلفة التي شكلت المجال الحضري. وتأثيرات الكوارث الطبيعية والحروب والتحولات الديموغرافية في ازدهار أو تراجع المدن، مع ضرورة استعمال المصادر التاريخية والشواهد الأثرية في دراسة العمران والعمارة الإسلامية، ويمكن القول أن المطبوعة تيح للطالب نظرة شاملة لفهم تاريخ العمران والمدن الإسلامية وأهميتها التراثية والحضارية في الغرب الإسلامي.

Abstract :

This publication reviews the "Scale of Urbanism and Urban Centers in the Islamic West," and aims to introduce students to the concepts of Islamic urbanism and its stages of development during the Middle Ages, by combining historical and analytical study of urbanism. It also highlights the concepts and jurisprudential and intellectual foundations of Islamic urbanism, which in turn governed the organization and planning of Islamic cities and their public facilities.

As well as studying well-known urban models, and highlighting the various factors that shaped the urban area. The effects of natural disasters, wars, and demographic shifts on the prosperity or decline of cities, along with the necessity of using historical sources and archaeological evidence in the study of Islamic architecture and urbanism. It can be said that the publication provides students with a comprehensive overview to understand the history of urbanism and Islamic cities and their heritage and cultural significance in the Islamic West.

مقدمة.

يعتبر العمران في الغرب الإسلامي بقايا مادية تنبض بالحياة وليست حجارة صماء تصارع الطبيعة، وهي تعكس معاني إنسانية للمسلمين وما استقر في مخيلتهم من أفكار وتصورات، وعليه فالمدينة ليست مجالا يحتوي العمران من منظور مادي فحسب، وإنما هي مركب تتداخل فيه المتطلبات المعيشية، والدين والسياسة والبيئة والذاكرة الجماعية.

والعمران بطبيعته له مفاهيم ودلالات واسعة في الفكر الإسلامي، فهو شامل لطريقة وشكل البنايات، ولتنظيم وتطوير المجال الحضري، وللحضور الإنساني داخله، واستيعابه لطرق الحياة والعيش الخاصة بكل اجتماع أو مجموعات بشرية، وبالتالي فدراسة العمران لا تختزل في الدراسة الوصفية والتحليلية للمدن ومكوناتها، بل تقتضي الاهتمام بدراسة النصوص التاريخية والشواهد المادية، وفق منهجية تزاوج بين العمارة والتاريخ، والفكر المعماري وتوظيفه في الميدان.

وفي هذا الإطار العلمي تأتي هذه المطبوعة البيداغوجية، لتكون تتويجا لمسيرة معتبرة من تدريسنا مقياس مدخل إلى علم الاثار، ولمقياس العمران والمراكز الحضارية في الغرب الإسلامي، وكحوصلة لاهتمامنا المتزايد بالنصوص التاريخية التي تتطرق إلى العمران والعمارة الإسلامية، وكذا بالدراسات التراثية بشكل عام. وقد راعينا في إنجازها أن تكون بلغة أكاديمية بعيدة عن التعقيد، وأن تكون متدرجة في طرحها للمواضيع، وعميقة في مضمونها، لتقريبها أكثر من عقول وأذهان الطلبة، مع مراعاة قواعد البحث العلمي.

ومن ناحية المحتوى فهي تضم ثلاث عشرة محاضرة، تتماشي مع المحاور الرسمية لتدريس هذا المقياس، وتتكامل بينها بعيدا عن التشابه الممل، وتبدأ بالتطرق للمفاهيم الرئيسية، وذلك لتوضيح الجانب الاصطلاحي بوضوح وللبناء العلمي للمحاضرات، ثم تبيان القواعد الفكرية والفقهية التي تحكمت في العمران بالغرب الإسلامي، وبعدها يتم التطرق إلى مختلف الأنماط المعمارية المعروفة، سواء الدينية أو المدنية أو العسكرية، ليتم بعدها دراسة التغيرات العمرانية التي طرأت عليها عبر مختلف المراحل التاريخية، من مرحلة التأسيس ثم مرحلة

التوسع والازدهار فمرحلة الضعف الأخيرة، مع التركيز على أمثلة ونماذج تعكس خصوصية كل مرحلة وكل مكان.

وابتغينا في هذه السلسلة من المحاضرات الوصول إلى التوازن المطلوب بين السرد والإلقاء والتحليل والوصف والتفسير، وبين الاختصار والإيجاز والغوص في التفاصيل، حسبما تقتضيه الحاجة، لهذا السبب وغيره تنوعت الفقرات بين الطويلة والقصيرة، لتفسير المعاني وتوضيح الأفكار وإيصالها للطالب.

والهدف من هذه المطبوعة لا يقتصر على ضخ معلومات جاهزة في ذهن الطالب بقدر ما هو تدريبه على الملاحظة والتساؤل، واستقراء موضوع العمران كعلاقة حيوية بين الإنسان والمجال والبيئة التي يعيش فيها، وكمسار وتجربة تتطلب الفهم والاستيعاب وليس الحفظ والتكرار، وكل ذلك في محاولة منا لتكون هذه المطبوعة وما تم بذله فيها من مجهود، إسهاما لتقريب المعرفة والاهتمام بهذا المقياس، وفتح نافذة للبحث في تاريخ العمران بالغرب الإسلامي، نظرا لما يكتنزه من خفايا تستحق مزيدا من البحث والدراسة.

المحاضرة (01): مفاهيم العمران بين النصوص التاريخية والشواهد المادية.

تمهيد.

يعتبر العمران من المفاهيم الهامة في دراسة تاريخ الغرب الإسلامي في الفترة الوسيطة، لأنه يعطينا فكرة حول تأسيس المدن ونموها ووظائفها وعوامل ازدهارها أو تراجعها، فبالإضافة إلى توظيف النصوص التاريخية والاكتشافات الأثرية، لابد من اللجوء إلى المصادر التاريخية والشواهد المادية لدراسة العمران. وتهدف هذه المحاضرة إلى: ضبط مفهوم العمران لغة واصطلاحا، والتمييز بين العمران والعمارة، وعرض أهم المصطلحات الواردة في المصادر التاريخية والمرتبطة بالمدينة الإسلامية، وتحديد منهجية قراءة الشواهد الأثرية، وعرض نموذج مدينة من الغرب الإسلامي.

1. مدخل إلى مفهوم العمران.

1.1. مفهوم العمران لغة واصطلاحا: وسوف نستهل هذا المحور بعرض مفهوم العمران من الناحية اللغوية فالقول: عُمّر المكان، أي كان مسكونا بالناس، وعمر الدار، أي بناها، والعمران هو البنيان أو ما يعمر به البلد، كالصناعة والتجارة والبناء، ولفظة "العمران" في اللغة العربية ترتبط بالجذر (ع م ر)، الذي يفيد في السكن والاستقرار، ويقال: "عمر المكان" أي سكنه الناس فأصبح عامرا.

ويعتبر ابن خلدون من أشهر العلماء الذين تناولوا العمران، حيث يرى أن الاجتماع الإنساني هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات، وأصناف التغلبات البشرية، وما ينشأ عن ذلك من الدول ومراتبها وممارسات الناس من أعمال الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من طبيعة ذلك العمران، فالعمران يدل على الاستيطان والاستقرار وتشييد البناء وتنظيم المجالات العقارية.

2.1.العمران في المصادر الإسلامية: لقد ورد مفهوم العمران في القرآن الكريم من خلال الكلام عن الاستخلاف، في قوله تعالى: "هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا" (القرآن الكريم، سورة هود، الآية 61)، أي جعلكم عمّارا لها.

وفسر العلماء المسلمون العمران في عدة سياقات: باعتباره عمارة بشرية كتنظيم المجتمع وإقامة العدالة، وعمارة مادية كالمساجد والمساكن والأسواق، أما ابن خلدون فاعتبر أن العمران هو الاجتماع البشري وما ينشأ عنه من الأحوال. إذن فالعمران ظاهرة اجتماعية وسياسية واقتصادية كونه يمس مختلف مظاهر الحياة البشرية.

2. الفرق بين العمران والعمارة.

يتميز العمران بفهم شامل للمجتمع والبلد ويدرس مظهر المدن وتطورها. بينما تركز العمارة على الجوانب الفنية والمادية للهندسة المعمارية وعلى دراسة الأسلوب والزخرفة المعمارية. وحتى لو كانت المدينة جميلة من الناحية المعمارية، فإنها تكون ضعيفة من الناحية العمرانية إذا تم تجاهل أدوارها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

3. المصطلحات الوسيطية حول المدينة الإسلامية.

استخدمت المصادر التاريخية عدة مصطلحات للتعبير عن المدينة، وتعكس التنوع الوظيفي داخل المجال المعماري، وقد تطرق إليها ابن خلدون أيضا، ونذكر منها:

– **المِصر**: وهي مدينة أنشئت لأغراض سياسية وعسكرية وإدارية بعد الفتوحات الإسلامية. ويذكرها ابن خلدون بقوله: "المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدّمناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل التّرف. وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها فتنقلب ضرورات وتصير فيه الأعمال كلّها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الأعراض عليها من أجل التّرف وبالمغارم السّلطانيّة الّتي توضع على الأسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأوقات".

– **الحاضرة:** وتتعلق عادة بالمدن التي يكون لها ثقل سياسي وتوهج علمي. وهنا يذكر ابن خلدون الحاضرة في قوله: " بل نجد أهل الدّين قليلين في المدن والأمصار لما يعمّها من القساوة والغفلة المتّصلة بالإكثار من اللّحمان والأدم ولباب البرّ ويختصّ وجود العبّاد والزّهّاد لذلك بالمتقشّفين في غذائهم من أهل البوادي وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طيّباته من أهل البادية ومن أهل الحواضر".

– **المدينة:** هي تجمع سكاني منظم من الناحية العمرانية. وذكرها ابن خلدون بقوله: "الإنسان مدني بالطبع أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معني العمران وبيانه...".

– **الرباط:** هو عبارة عن حصن دفاعي له أبعاد دينية وعسكرية. وذكره ابن خلدون في الجزء السادس من المقدمة: "ووضعوا عليها الإتاوات مثل تارودانت من سوس، وهي ضفّة وادي سوس حيث يهبط من الجبل، وبين مصبه ومصب وادي ماسة حيث الرباط المشهور مرحلة إلى القبلة".

– **القصبة:** عادة ما تتوسط المدينة وتكون مقرا للسلطة الحاكمة. يقول ابن خلدون: " فلّ الحصار وجلّى القتال، ومحشّ الحرب أبو زكريا بن شعيب، فثبت للصدمة ونوّر للأندلس، فبادره المدد من الجبل ومن مالقة، وتوالت الأمداد وخاف أهل البلد، ورجع شرفاؤه ودخلوا القصبة .

4. شروط قيام المدن الإسلامية: تتكلم العديد من المصادر التاريخية الإسلامية عن شروط إنشاء المدن، وتجمع تقريبا على أهم العوامل التي يجب توفرها في المواقع التي ينشأ فيها العمران. ويذكر الماوردي ستة شروط لإنشاء الأمصار، وهي: سعة المياه المستعذبة، والميرة المستمدة، واعتدال المكان الموافق لصحة الهوى والتربة، والقرب من المراعي والأحطاب، وتحصين منازله من الأعداء والزعار، وأن يحيط به سواد يعين أهله بمواده.

وكل ما ذكره يتوافق على ضرورة توفر مقومات الحياة والاستقرار، التي تتداخل فيها عوامل بيئية واقتصادية وأمنية، كتوفر الماء، والغذاء، والمناخ المعتدل الغير مضر بصحة الناس، وتوفر المراعي للمواشي والأغنام، والحطب للطبخ والتدفئة، وتحصين المدينة بأسوار وخنادق وغيرها مما كان سائدا آنذاك من وسائل الحماية والدفاع عنها ضد المخاطر، ووجود أراضي زراعية تحيط بالمدينة وتدعم سكانها بما يحتاجونه من موارد فلاحية.

5. القيروان نموذج لمدينة من الغرب الإسلامي.

مع وصول الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب في القرن الأول الهجري، برزت الضرورة إلى إنشاء مراكز عسكرية قارة لمراقبة القبائل، وتنظيم الجباية، ونشر الإسلام، ولعل أهم هذه المدن في البداية هي مدينة القيروان، التي تأسست حوالي سنة 50 هـ على يد عقبة بن نافع الفهري، وكانت قاعدة عسكرية ومركزا دينيا، ونقطة انطلاق للفتوحات الإسلامية.

1.5. تأسيس مدينة القيروان: خلال الفتوحات الإسلامية كانت كل الجهود تصب في بوتقة واحدة هي نشر الدين الإسلامي وتوطيد أركانه، مما دفع الفاتحين إلى إنشاء مراكز وقواعد تستقر فيها جيوش المسلمين، وينطلقون منها ويرجعون إليها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وفي هذا السياق جاء تأسيس مدينة القيروان سنة 50 هـ/670 م، التي تعتبر نموذجا لهذه المراكز والقواعد السالفة الذكر.

أسسها عقبة بن نافع بتونس الحالية، في مكان قريب من البربر في الداخل، مما أدي إلى دخول كثير منهم الإسلام، وأجمع المؤرخون أنه عند اختطاط عقبة للقيروان نادي قائلا: "أيتها الحياة والسباع نحن أصحاب رسول الله –صلي الله عليه وسلم–ارحلوا عنا إنّا نازلون ومن وجدنا بعد ذلك قتلناه"، فنظر الناس بعد ذلك إلى السباع تحمل أشبالها والذئاب تحمل جراءها والحيات تحمل أولادها.

ويمكن القول أن اختيار المكان جاء لبعده عن الساحل حتى لا تتعرض لأساطيل البيزنطيين من الشمال، والقرب من البادية لتباشر نشر الإسلام بين البربر، وتأمين إمدادات الجيش، وحماية القوافل التي هي تعتبر وسائل المواصلات، وهنا نستطيع تبرير ذلك النقاش

الذي دار بين عقبة وأصحابه حول مكان القيروان وموضعها بالنسبة للروم والبربر، وقربها من البحر يسمح لأهلها بالرباط، وكغيرها من المدن الإسلامية تمركز تخطيط المدينة حول الجامع، وقسمت أحيائها من منظور قبلي.

2.5. الدراسة العمرانية لمدينة القيروان: بالإضافة إلى تخطيط المدينة وتوزيع شوارعها وممراتها وأحيائها، فإننا سوف نستعرض في هذا الجانب أيضا عدة شواهد مادية لمعرفة العمران الفعلي للمدينة، كالجدران والأساسات والنقوش والفخار والمسكوكات وغيرها.

1.2.5. تخطيط المدينة: بالإضافة إلى تأثير الطبوغرافيا المحلية والسمات المورفولوجية للمدن التي كانت قائمة من قبل، عكست المدينة الإسلامية الهياكل الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية العامة للمجتمع، وقد شملت القوانين الطبيعية، من خلال تكييف الشكل العمراني للمدينة مع الظروف الطبيعية، والمعتقدات الدينية والثقافية، باختيار المسجد كمركز للمدينة، والفصل بين الحياة العامة والخاصة، والمبادئ الاجتماعية، عن طريق توزيع الأحياء على مجموعات تشترك في رابطة الدم والأصل العرقي.

لقد عرفت القيروان تطورا عمرانيا مميزا مقارنة بالمدن الإسلامية السابقة، سواء من حيث المرونة، أو من حيث توزيع المرافق العامة بطريقة منتظمة وأسلوب صارم، أما من حيث مواد البناء فاستخدم الأجر المطبوخ في أغلبية بناياتها، واختلفت آراء المصادر التاريخية حول مساحتها، فبعضهم حددها بـ3600 باع أي 8352 متر مربع، وبعضهم الآخر كابن عذاري حددها بـ13600 ذراع أي ما يعادل 7000 متر مربع، بينما ذكر المقدسي أن مساحتها أقل من ثلاثة أميال قبل بناء السور المحيط بالمدينة.

2.2.5. مركز المدينة (المسجد ودار الإمارة): قام عقبة بن نافع بتحديد مركز المدينة حيث وضع فيه الجامع ودار الإمارة، فقد مر بناء المسجد الجامع بعدة مراحل، ففي البداية ظل موضع البناء فضاء مفتوحا بسبب الخلاف حول اتجاه القبلة، ثم بني وأصبح محرابه نموذجا لمساجد المغرب الإسلامي، وتعتبر المئذنة من الأقسام الهامة والجديدة في عمارة الجامع، فهي

تقع في مؤخرة المسجد شمال الصحن، وتتألف من ثلاثة أجزاء هي البدن والرقبة والقبة، وقد بنيت أساساتها بالحجارة الضخمة.

أما دار الإمارة فهي ملازمة للمسجد الجامع، وهو أسلوب عمراني مستحدث انفردت به المدينة الإسلامية، لربط الإدارة السياسية بالحياة الدينية، وتفصلها عن الجامع طريق تفرعت من الشارع الرئيسي، وبنيت الدار من الطين والآجر الممزوج.

3.5. المنشآت العامة للمدينة: تضم المدينة الإسلامية عدة منشئات عامة ترتبط بعمارتها، وتقدم الخدمات لسكانها، من أسواق وأنظمة ري وحمامات ومقابر.

1.3.5. الأسواق: تم اختيار مكان السوق في وقت مبكر في قلب المدينة، وعرف تطورا ملحوظا في عهد هشام بن عبد الملك، حيث ظهرت فيه أجنحة متخصصة في سلع بعينها.

2.3.5. نظام المياه: تمثل أساسا في الآبار ومواجل تخزين مياه الأمطار، وهي خزانات تحت سطح الأرض صممت بأشكال مربعة أو مستطيلة، ونظرا للجفاف وشح المياه حفر المسلمون العديد من الآبار، مثل: آبار خديج وبئر أم عياض.

3.3.5. الحمامات: كانت الحمامات تقع عادة على أطراف المدينة لأسباب صحية، وقد أحصي البكري بمدينة القيروان حوالي 48 حماما.

4.3.5. المقابر: كمعظم المدن الإسلامية توجد المقابر خارج المدينة، وفي القيروان تركزت في الجهة الغربية، وذلك من أجل اقتصاد المساحات، ومن أشهر المقابر بالقيروان نجد: مقبرة قريش ومقبرة أبي زمعة البلوي (سيدي صاحب).

المحاضرة (02): العمران في الفكر الإسلامي.

تمهيد.

إن تأسيس المدن الإسلامية كان وفق قواعد شرعية مستمدة من القران الكريم ومن السنة النبوية الشريفة، ورتبطت بنهج واضح ومحدد هو الخلافة في الأرض، ولم تعد المدينة الإسلامية مجرد مكان تجمع لمجموعات بشرية أو لمراكز اقتصادية، بل تحولت إلى مراكز ثقافية يعمرها الإنسان المسلم ضمن إطار أخلاقي ينظم علاقته بالعمران وبالسكان الآخرين، والفقه الإسلامي الذي نظم العبادات والمعاملات لم يغفل تنظيم حق الجوار، وتخطيط الطرقات، وإدارة البنايات والأسواق وكل ما يتعلق بالموافق العامة.

1. مفهوم العمران في الفقه الإسلامي.

العمران لغة من الجذر ع م ر من فعّل، ومعني تعمير الأرض، بناؤها، وعمارتها (معجم الصواب اللغوي، 2008، صفحة م: 244/1). م: 244/1، والعمران لغة هو مصدر من عمر الأرض يعمرها، وتطلق على الاسم كما تطلق على المصدر، وهو كل الإنشاءات المعنوية والحسية التي يقوم بها الإنسان فيعبد بها الله تعالي ويقوم بوظيفة الخلافة.

واصطلاحا يطلق العمران على علم العمران البشري، ويشمل تخطيط وتصميم مدينة أو مجتمع، ويسمى أيضا: علم الاستيطان البشري (معجم اللغة العربية المعاصرة، 2008، صفحة م: 2462/3)، وهو الضوابط الشرعية والفقهية التي تنظم العلاقات الإنسانية في مجال العمران، وتشمل تنظيم البناء، وحماية حق الجوار، وضبط استخدام الطرقات والمرافق العامة، وتنظيم الأسواق والأنشطة الاقتصادية.

2. القواعد الشرعية للعمران.

ورد في القران الكريم عديد الآيات التي تدل على العمران وضرورة تعمير الأرض، واستخلاف الإنسان في الأرض، والنهي عن الإفساد، كما ورد في الآيات التالية:

– "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.."(القران الكريم: سورة البقرة الآية 30).

– "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ..." (القران الكريم: سورة النور الآية 55).

– "هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..." (القران الكريم: سورة هود الآية 61).

– "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا..." (القران الكريم: سورة الأعراف الآية 56).

وهناك أيضا أحاديث نبوية شريفة، تدعو إلى الطهارة والنظافة وإزالة الأذي عن الطريق ونظافة البيوت والساحات، نذكر بعضها كما يلي:

– قال رسول الله صلي الله عليه وسلم:

– "الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ –أَوْ تَمْلأُ– ما بيْنَ السَّمَواتِ والأرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها". (المصدر: صحيح مسلم).

– "إنَّ اللهَ طيِّبٌ يحبُّ الطَّيِّبَ نظيفٌ يحبُّ النظافةَ كريمٌ يحبُّ الكرمَ".(المصدر: تذكرة الحفاظ).

– "في ابنِ آدمَ سِتونَ وثَلثُمِائَةِ سُلامَى أوْ عَظْمٍ أوْ مَفْصِلٍ على كلِّ واحِدٍ في كلِّ يَوْمٍ صدقةٌ؛ كلُّ كَلِمَةٍ طَيْبَةٍ صدقةٌ، وعَوْنُ الرجلِ أَخَاهُ صدقةٌ؛ والشَّرْبَةُ مِنَ الماءِ (يَسْقِيها) صدقةٌ، وإِماطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ". ".(المصدر: صحيح الأدب المفرد) (الموسوعة الحديثية، 2026).

– "نظِّفوا أفنيتَكم فإنَّ اليهودَ أنتنُ الناسِ". (المصدر: السلسلة الصحيحية).

3. المقاصد الشرعية في العمران.

تدور معظم المقاصد الشرعية حول محور الاستخلاف في الأرض وإعمارها، وتشمل جميع نواحي الحياة البشرية التي تنظمها الأحكام الشرعية العامة والخاصة، وبمكن تلخيص أهم المقاصد الشرعية في العمران كما يلي:

1.3. خلافة الإنسان في الأرض: تحقيق مبدأ من المبادئ الكلية وهو الاستخلاف في الأرض، وعمارتها وصلاحها وخلافة الله في الأرض والقيام بما أمرنا به من العمران بجميع أنواعه.

2.3. حفظ الضروريات الخمسة: وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال، والتي لا يمكن أن تستمر الحياة بطريقة عادية وإنسانية دونها، وهو ما يوضحه أبي حامد الغزالي في المستصفى، حيث يري أن المصلحة في الأصل هي جلب منفعة، أو دفع مضرة، ويعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة: أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، وكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة هو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة.

3.3. تحقيق المصلحة العامة: إن الأحكام الشرعية في العمران قد وضعت لتحقيق مصالح الناس في الدين والدنيا، والمحافظة على مقاصد الشرع أيضا لدى الناس، والمقصد الأساسي في المعاملات العمرانية هو نشر الأمن والطمأنينة والراحة في الحياة العامة فرديا وجماعيا، وبالتالي فالمصلحة العامة تقتضي المحافظة على المقاصد الشرعية التي تصب في مصلحة الفرد والجماعة، ومحاربة كل من يخل بهذا المبدأ أو يتلاعب به سواء في العبادات أو المعاملات.

4.3. إقامة العدل ودرء الفساد: واجه الدين الإسلامي الفساد بكل أنواعه وبجميع الوسائل، سواء بتحريمه دينيا أو اجتماعيا من خلال التربية والتهذيب والتأديب، فالعدل أساس الملك، وأحد الأركان الأساسية للعمران وقاعدة راسخة من قواعد الحكم، وبه يصلح الفرد والجماعة والأمم، أما الظلم فهو سبب هلاك الأمم وخراب العمران.

5.3. التعاون والتكافل الاجتماعي: الاجتماعي الإنساني ضروري وأكيد، لأن الإنسان مدني بطبعه، لذلك فتعلم وإتقان فنون الزراعة وأصولها، والتعاون عليه، اعتبره الفقهاء فرض كفاية وبه قوام الدين والدنيا (ميهوبي، 2023، صفحة 15)، وكلما ازداد الاجتماع البشري، وتعاون الناس في العلوم والحرف والصنائع اتسع العمران.

6.3. تحقيق النظام في الحياة: يعتبر بناء الدور العالية والقصور الزاهية ودقة النجارة وهندسة البناء البديعة من نعم الله تعالي في العمران، كما أن الشريعة أبدعت في الحث على تنظيم

الشوارع والأفنية والأسواق، للوصول إلى غاية مثالية وهي الوصول إلى الجمال والنظام المنشود في الحياة الإنسانية العامة.

4. القواعد الفقهية المنظمة للعمران.

1.4. قاعدة لا ضرر ولا ضرار: يستند الفقهاء في حل النزاعات العمرانية على هذه القاعدة، والتي تعني أنه يجب إزالة الأضرار ابتداء ودواما، والمقصود بالضرر العمراني، كل عيب أو سوء يمس أو يظهر في المدينة أو في بنيتها العمرانية والمعمارية، والذي يمكن أن يعرض سكانها وزوارها للخطر أو الضيق أو الحرج.

2.4. فقه الجوار: تتجلي إنسانية الإسلام في حثه على حسن الجوار، من خلال تعامل الفرد المسلم بطريقة أخلاقية مع جيرانه الذين يشتركون معه في أجزاء من المبني وحقوق الارتفاق، سواء كانت العلاقة عمودية بنظام علو وأسفل أو أفقية من خلال نظام تلاصق المباني، ويتجلى سمو تطبيق هذا المبدأ في ستر العورات، فالأصل في البناء أن يكون ساترا لعورة أهل المنزل، جعل المداخل منكسرة والنوافذ عالية، لحفظ الخصوصية وتحقيق مبدأ منع التكشف والاختلاط وغض البصر، وكل ذلك تحقيقا لمبدأ إنساني راق هو حفظ كرامة الإنسان.

3.4. تنظيم الطرق والأسواق: حددت الشريعة الإسلامية الشوارع بـ7 أذرع لضمان عبور دابتين متقاطعتين، وقد ورد ذلك في حديث الرسول –صلي الله عليه وسلم–: "**إذا اشتجرتم في الطريق فاجعلوها سبع أذرع**" (المصدر: صحيح البخاري ومسلم الرقم: 1613)، والشارع النهج بـ40 ذراعا وما يليها 30 ذراعا، والأزقة الضيقة بـ7 أذرع، أما الارتفاع فأجاز الفقهاء البناء فوق الطريق إذا انتفى الضرر، أما ارتفاع الرفوف والعساكر فحددوها بما يسمح مرور الراكب على أعظم محمل.

وروعي في تنظيم الأسواق مبدأ التخصص، حيث جعل لكل صنعة سوقا خاصا بها، وأبعدت الحرف والصناعات التي بها نار ودخان أو رائحة كريهة، وقد تلحق الضرر بصحة الناس أو بطمأنينتهم وراحتهم، كالدباغة والحدادة والطبخ، حيث أبعدت عن الأسواق النظيفة

كالعطارين والبزازين، وطبقت القاعدة الحاكمة لشغل المكان التي أقرها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه–: "من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه".

4.4. حق الملكية والعقار: من المبادئ الأصيلة في العقار هو حق المالك في التصرف في ملكه، لكن هذا الحق ينتفي عند إلحاق الضرر بالآخرين، وخاصة في الإطلال والإعراض، وصنف الفقه الإسلامي الملكيات كما يلي: ملكية عامة، وملكية خاصة، وملكية وقفية، فالأوقاف ساهمت بشكل هام في توسيع العمران من خلال بناء المساجد والقلاع والمستشفيات. ونظم الحق في إحياء الأرض الموات التي لا مالك لها، واشترط الفقهاء في ذلك إذا كانت قريبة من عمران المدينة ضرورة أخذ إذن الإمام، من أجل ضمان عدم إلحاق الأضرار بالمرافق العامة أو بحقوق السكان الآخرين.

5. دور الفقه الإسلامي في تخطيط المدن.

يستمد العمران في الغرب الإسلامي تخطيطه من أحكام الشريعة والفقه الإسلامي، سواء ما تعلق بتخطيط الأحياء أو المساجد أو الأسواق والمرافق العامة.

1.5. تخطيط الأحياء السكنية: روعي في تخطيطها عدة مبادئ كمبدأ الخصوصية وحسن الجوار، وستر العورات، فقسمت وفق الانتماءات القبلية والعشائرية، مثلما اشترط الفقهاء كشهاب الدين بن الربيع الذي اشترط ألا تجمع أضداد متباينة، وحسب الحرف والصنائع. فكانت النوافذ عالية حتى تسمح بالإضاءة فحسب، والمداخل منكسرة حتى لا يري من بداخل البيت، وفصل بين قاعات الضيوف وأهل المنزل، وقسمت علاقات الجوار إلى علوية وسفلية (متلاصقة)، ووضعت ضوابط لاستخدام الأجزاء المشتركة في السكن كالمداخل والحوائط.

أما منع الإطلال فعالج الفقهاء مسألة التكشف المتعلق البناء العلي وفتح نوافذ أو كوات تطل على الجار، بتقييد حرية المالك في ملكه حيث تنتهي عند إمكانية إلحاق الضرر بأعراض جيرانه، وخير مثال على ذلك أن صعود المآذن التي كانت تطل على الدور المجاورة في مدينة قرطبة، يمنع صعودها إلا بوضع الحواجز.

2.5. المسجد كمركز عمراني: لقد تجلي دور المسجد في المدن الإسلامية الأولي مثل الكوفة كمركز للقرار، من خلال ارتباطه بدار الإمارة والقضاء، وانفصاله عن دار الإمارة في مراحل لاحقة أثر على طبيعة الحكم، ويشترط الفقهاء عند بناء المدن ضرورة أن يكون المسجد وسط المدينة، باعتباره القلب النابض لها، نظرا للأدوار التي كان يلعبها في حياة المسلمين، وتحقيقا لغرض وظيفي يتمثل في قربه من جميع أهل المدينة وتسهيلا للوصول إليه من مختلف أنحاء المدينة. ويعتبر المسجد معلما بصريا مميزا للمدينة، من خلال المآذن الشاهقة التي يفوق علوها كل البنايات المجاورة، فأصبحت علامة بصرية ومعلما يهتدى به داخل المدينة.

3.5. تنظيم الأسواق: خضع تنظيم الأسواق لنظام الحسبة الذي يستند إلى قواعد فقهية تسعي إلى الوصول إلى تحقيق المصلحة العامة والرفق بالزبائن ومنع الأضرار التي قد تلحق بالناس، والفقهاء كشهاب الدين بن الربيع يوجبون على الولاة تحقيق كفاية الأسواق لاحتياجات السكان في الغايات التالية:

– تقدير كفاية السكان: من الضروري تقدير حاجة سكان المدينة من الأسواق عددا ومساحة، لضمان التزود بالبضائع والاحتياجات عن قرب ودون معاناة.

– التوزيع التخصصي والنوعي للأسواق: يستند التوزيع الداخلي للأسواق إلى نظام الحسبة الذي يهدف لتسهيل التجارة ومحاربة الفوضى، فقد أوجب الفقه الإسلامي أن يخصص المحتسب سوقا لكل صنعة رفقا بالزبائن.

– إبعاد وفصل الصناعات المضرّة: يتم إبعاد الصناعات والحرف التي تتطلب الوقود والنار كالحدادين والطباخين والخبازين، عن بقية الحوانيت ذات السلع الرقيقة كمحلات العطارين والبزازين، لعدم المجانسة وعدم إتلاف السلع بالدخان أو النار.

– تحقيق مبدأ الأسبقية وحق الانتفاع: أرساه عمر بن الخطاب، ويعني أن الأسواق متاحة للجميع ومن سيق إلى مكان فهو أحق به إلى غاية أن يفرغ منه.

– حق الارتفاق في الساحات: يمكن للتجار القعود في الساحات والشوارع الواسعة مع مراعاة الأسبقية.

– ضبط التظليل: يمكن للتاجر تظليل المكان الذي يبيع فيه بضاعته بشرط ألا يعيق المارة.

– الحماية من المنشآت المزعجة: التي تلحق الضرر بالسكان المجاورين لها، كالمطاحن وأفران الخبز والحمامات والدباغون، لما لهم من أضرار حسية كالأصوات والدخان والروائح الكريهة.

4.5. المرافق العامة: لقد استند تنظيم المرافق العامة إلى قواعد الوقف ومنع الضرر، باعتبارها مرافق عامة في المدينة الإسلامية، غايتها تحقيق المصلحة العامة، التي تخدم السكان، وتوفر لهم جزء من متطلباتهم واحتياجاتهم الخدمية.

1.4.5. الحمامات: لها علاقة وطيدة بالقيم الإسلامية، لأنها مكان للطهارة والاغتسال، خاصة للطبقة الواسعة من الناس الذين لا يملكون حمامات في بيوتهم، ويذكر اليعقوبي أن بغداد وحدها كان بها أكثر من 10 الاف حمام، نظرا للربح الذي تدره على أصحابها، وحاجة الناس إليها، ومما يدل على قيمتها الاجتماعية والشرعية أنها كانت تُوقف على المنشآت الدينية كالمساجد والمدارس، وكانت حمامات خاصة للنساء وأخري للرجال، وهناك منها ما استخدم للرجال في أوقات محددة وللنساء في أوقات أخري، وكانت تصرف على طلاب بعض المنشآت الدينية شهرية للاستحمام بالحمامات العامة، وهذا ما يدل على قيمتها الاجتماعية.

وكان يشرف عليها المحتسب لمراقبة عملها بالآداب الشرعية خاصة الأمور التي تتعلق باستخدام النساء لها، حيث يجري المحتسب زيارات للأماكن التي يجتمع فيها النساء، كالأبواب حيث يقوم بتأديب الشباب الذين يعترضوهن لضمان حرمتها.

وتتحكم المساحة المتاحة والجانب الاقتصادي في تصميم الحمامات، فاختلفت تصاميمها وأحجامها، فمنها الكبيرة ومنها الصغيرة جدا كحمام الفار بالفسطاط الذي كشفت عنه الحفريات الأثرية جنوب المدينة.

ومن الناحية الفقهية صنفت الحمامات من الضروريات التي يهتم بها المعماري المسلم إلى جانب العبادة وطلب العلم، ومنه الفقه بناء الحمامات في الأماكن التي يمكن أن تضر بالجيران لأنها يمكن أن تؤذيه بالحرارة أو الروائح أو الدخان، واعتبر الفقهاء كابن القاسم ومالك ذلك ضررا كثير الاستدامة.

2.4.5. السقايات: يعتبر الفقهاء المياه أولوية في تخطيط المدن، فشهاب الدين بن الربيع، اشترط أن يساق الماء العذب إلى المدينة حتى يتمكن السكان من الوصول إليه دون عناء ولا عسف. كما استخدم الماء كعنصر جمالي ووظيفي في المجالات العامة، من خلال استخدامه في تشغيل النافورات التي تعتبر من مظاهر الإبداع المعماري في المدن الإسلامية.

3.4.5. المنشآت الخدمية: لقد ساهم الوقف الإسلامي في إنشاء المرافق الخدمية الكبرى مثل المساجد والمدارس والمستشفيات والحصون والقلاع، كما أوجد الوقف إلى جانب الملكية العامة والخاصة، نوعا ثالثا يضمن تقديم واستمرارية الخدمات كمنشآت برّ وتقرّب إلى الله، وأكد الوقف على ضرورة تقدير هذه المنشآت الخدمية حسب كفايتها.

المحاضرة (03): العمارة في الغرب الإسلامي: الأنواع الوظيفة والشواهد المادية.

تمهيد.

تعتبر العمارة بحق مرآة عاكسة لحياة الإنسان المسلم عبر الأزمنة والعصور، فهي تروي حكاية الإنسان بأبعادها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وعن طريقها يفهم المراحل التي مرت بها المدن، وكيف تناغم الجمال والشكل مع الوظيفة والغاية، وتوزعت العمارة بين الدينية والمدنية والعسكرية، لتخدم المسلم والبيئة التي يعيش فيها، وظهرت نماذج معمارية تجلي فيها روح وإبداع المعمار المسلم من النواحي البنائية والفنية، وتأتي هذه المحاضرة في هذا السياق للتعريف بأنواع العمائر ووظائفها وبعض أهم نماذجها الشهيرة.

1. العمارة الدينية.

يتعلق مفهوم العمارة الدينية بالمنشآت المعمارية التي تتم فيها الممارسات الدينية الإسلامية بشكل عام، وتنقسم العمارة الدينية الإسلامية إلى قسمين هما: عمارة العبادة والتعليم، وتتمثل في المساجد والأربطة والزوايا والمدارس بأنواعها، وعمارة الجنائز، وتتمثل في الأضرحة والمقامات والمراقد والمشاهد والرياض والترب.

1.1. نماذج من العمائر الدينية: سوف نتطرق إلى نماذج من المساجد الشهيرة في الغرب الإسلامي، نظرا لأنهما يعتبران مدرسة في فن بناء المساجد في العمارة الإسلامية، وهما جامع القيروان وجامع قرطبة.

1.1.1. جامع القيروان: عندما اختار عقبة بن نافع المكان الذي تقام فيه مدينة القيروان قام بإنشاء دار الإمارة وبالقرب منها بنى جامع القيروان، وتذكر المصادر الصعوبة التي وجدها في تحديد القبلة، مما دفعه فيما بعد لتحدديها بطريقة الإيحاء الروحي الذي توارثته عنه الأجيال. وفي بدايته كان المسجد أشبه بالمصلي المكشوف، وبعد أربع سنوات تخلي عنه الوالي أبو المهاجر دينار، فتخلي عن المسجد، فهجر المكان حوالي سبع سنوات، فانصرف الناس عنه

إلى تاكرونة التي أسسها أبو المهاجر دينار، ولما عاد عقبة في ولايته الثانية سنة 61 هـ-680 م بأمر من يزيد بن معاوية، أرجع الناس إلى قيروانه وأعاد تعميرها، لكن بعد ثلاث سنوات استشهد في موقعة تاهودا نحو سنة 63 هـ-683 م، فدخل كسيلة البرنسي المدينة في نفس السنة، بعد أن فارقها زهير بن قيس البلوي وحنش الصنعاني إلى برقة.

وبعد ثورات وصدامات خاضتها جيوش الدولة الأموية ضد الخوارج الصفرية الذين انزاحوا عن المشرق، واستقبلهم البربر في بلاد المغرب، بعد نحو نصف قرن، وفي عهد يزيد بن حاتم المهلبي الذي استقرت به بلاد المغرب، بعدما بعثه الخليفة المنصور من بغداد ليقلص طموح الفهريين في حكم إفريقية، بعدما بدأت تتجمع قوي مناوئة للخلافة: الخوارج والأمويون والعلويون والفهريون، فانصرف لكل هذا ولتجديد مدينة القيروان، فرتب أسواقها وخصص لكل صناعة مكانها، وشرع سنة 157 هـ/774 م في إعادة بناء المسجد الجامع بعدما هدمه كله ماعدا المحراب والأجزاء المقامة بالحجر المنحوت التي بناها قبله بشر بن صفوان، كالصومعة وبعض الأركان، وأضفي صفة قصبة الحكم على المدينة، وقيل أنه مصرها وحسنها وزاد في قدرها.

وبعد نحو نصف قرن جاء الأغالبة فاستمر حكمهم لإفريقية قرابة القرن، قام ثالث أمرائهم زيادة الله بن إبراهيم (201-223 هـ/816-837 م)، فأعاد النظر في عاصمته القيروان، ومنها إعادة بناء الجامع بعد هدمه حاشا المحراب كما تذكر النصوص، وأبقي على الأجزاء المتماسكة التي بناها قبله الخليفة بشر بن صفوان، وانتهت الزيادات المعمارية في الجامع بعد ربع قرن، بما أضافه أبو إبراهيم أحمد بن الأغلب (242-249 هـ/856-863 م)، فوصل شمال قاعة الصلاة ببناء البلاطتين وقبة البهو المطلة على الصحن، بعدما هدم جزءا من واجهته المرتفعة ذات الزخارف المحفورة وكذلك عمل المحراب من جديد فجلبه من مدينة المنصور مفصلا من الرخام ، كما عمل مجلسا جلبت له قراميد صينية جعلها في وجه المحراب، أما المنبر فصنع من خشب الساج المستورد.

ولا توجد تعديلات مهمة تذكر بعد هذه الفترة سوي تجديد أبواب المسجد في العهدين الحفصي والحسيني، وعمل المقصورة أيام المعز بن باديس أول القرن الخامس، وتدعيمه من الخارج وبناء أروقة الصحن من الداخل للحفاظ على تماسك البناء، والقيام بتسجيل مخطوطات الجامع في سجل، وتم كل ذلك على يد الأمير الحفصي المستنصر بالله أبي حفص سنة 693 هـ/1294 م.

2.1.1. جامع قرطبة: يعد نموذجا للجمال ودرة الحضارة الإسلامية في عيون كبار الرحالة العرب الأندلسيين، ويصنف كتحفة الأمويين في إسبانيا امتدت عمليات بنائه وتجميله لأكثر من قرنين، من نهاية القرن الثامن إلى القرن العاشر الميلادي، »الميسكيتا(La Mezquita) "، كما يسميه الإسبان، هي المسجد الوحيد المحفوظ من الإرث الإسلامي الأندلسي، وهو يهيمن على الموقع التاريخي لقرطبة المدرج ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو منذ عام.

ويعد أكبر مسجد في العصور الوسطى في الغرب الإسلامي، وأحد المعالم الدينية القليلة الشاهدة على العظمة الأندلسية؛ وقد طبعت هذه الذروة للإسلام الأموي الغربي الأدب والخيال في الشرق والغرب على حد سواء، ويجسد نموذجا أصيلا، يستمد عناصره بانسجام من الموروثات الرومانية–البيزنطية والقوطية الغربية، ومن التقاليد السورية للفن الأموي.

بناه عهد عبد الرحمن الأول (الداخل)، ويعتبر معلما فكريا وحضاريا ومنار للسلطة والنفوذ، كما يعد نقطة ارتكاز للمجتمع الإسلامي كله في إسبانيا، ومن أهم المعالم الفنية خلال حكم الثلاثة قرون، وكان عبد الرحمن الداخل شده الحنين إلى عهد الخلفاء الأمويين في الشام، فكان المسلمون في قرطبة يصلون على أنقاض كنيسة 169 هـ/785 م، عندما اشتري الموقع الأمير عبد الرحمن الداخل و بنى فيه المسجد.

بدأ بناء جامع قرطبة بأسلوب جديد سنة 168هـ/784 م، واكتمل بناؤه في سنة 70هـ/786 م، وأنفق على بناءه 80 ألف دينار، واشتري نصيب النصارى بـ100 ألف دينار، وفي ذلك يقول الشاعر محمد بن دحية البلوي:

وأنفق في ذات الإله وجهه ثمانين ألف من لجين وعسجد

توزعها في مسجد أسسه التقي ومنهجه دين النبي محمد

تري الذهب الناري فوق سموكه يلوح كبرق العارض المتوقد

وكان المسجد الجديد على قسمين: قسم مسقوف وهو بيت الصلاة، ويشتمل على تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة ممتدة على اثني عشر عقد (قوس) في كل بلاطة، تقوم على أعمدة من الرخام جلبت من الكنائس الخربة، وقسم مكشوف وهو الصحن المغروس بالأشجار، حيث كلف عبد الرحمان الداخل صعصعة بن سلام الشامي (ت 192 هـ) صاحب الصلاة بالمسجد أن يغرس في صحنه الأشجار، وصار هذا تقليدا بعد ذلك في مساجد الأندلس.

وتخطيط المسجد اعتمد الطراز المعمد ذي الأجنحة 11 المتجهة إلى القبلة تأسيا بطراز المساجد الأموية عامة وبالمسجد الأقصى خاصة، ويكشف طراز هذا المسجد سموا في الألوان والتشكيل، وتحدد الأجنحة أروقة مزدوجة تعلوها قناطر، وتعاقبت الحجارة والآجر في بناء عقودها، فاللونان الأحمر والأبيض يقسمان البناء من الداخل إلى عدة أجزاء.

وفي عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام، زيدت بلاطات المسجد من تسعة إلى أحد عشر ليتسع المسجد وذلك سنة 218 هـ/833 م، وفي عهد الأمير المنذر بن محمد أقيم بيت المال في صحن المسجد، كما أمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف، وفي عهد أخيه الأمير عبد الله بن محمد أنشأ ساباطا (طريقا مغطي)، معقودا على حنايا يصل ما بين القصر والجامع.

أما المنارة الشهيرة التي نشاهدها الآن فهي من إنجاز عبد الرحمن الثالث بعدما أزال المنارة الأصلية، كما أعاد بناء الصحن سنة 340 هـ/951 م، وجعل من أعمدته وأسطواناته بدائل تذكارية من دمشق، مما يدل على حنين الأمراء الأندلسيين إلى عاصمة الخلافة دمشق، وقام ابنه الحكم الثاني فأنجز رسوم المسجد المعتمدة اليوم، وزاد في قاعة الصلاة اثني عشر رواقا من الجهة الجنوبية، ووضع محرابا جديدا مزخرفا ينتهي بمقصورة ذات قبة باتجاه القبلة، لها ثلاثة أبواب مطلية بالذهب والفسيفساء الخضراء والزرقاء. كما أن هناد زيادات وتعديلات

لأمراء آخرين بعد ذلك، وهذا ما يدل على مكانة المسجد ورمزيته لدي الحكام الأندلسيين، الذين تنافسوا على بتشييد المساجد والاعتناء بها والتفنن في تزيينها.

2. العمارة المدنية.

تعبر عن الحياة اليومية للإنسان المسلم ولها دور وظيفي وجمالي، وتتمثل في القصور والدور والأسواق والحمامات والمدارس والخانات، ويمارس فيها الفرد المسلم حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية، ويسعي فيها لتطوير حياته نحو الأفضل، ويؤمّن من خلالها وسائله المعيشية.

1.2. نماذج من العمارة المدنية: سنستعرض في هذا العنصر نماذج من العمائر المدنية كالقصور والدور والحمامات الأندلسية، لمعرفة تاريخها وعمارتها، ومختلف المراحل التي مرت بها، قصد الوقوف على الحياة الخاصة والعامة في ذلك العهد.

1.1.2. قصر الإمارة (الخلافة): لقد حظيت مدينة قرطبة بعناية خاصة من طرف الولاة والأمراء والخلفاء منذ بداية الفتح الإسلامي للأندلس، وأصبحت حاضرة المسلمين في الأندلس، وظلت تحتل المكانة الأولي بين المدن الأندلسية إلى غاية سقوط الخلافة الأموية، لذلك فلا عجب إن رأينها تعج بأشهر وأبهي العمائر، ومنها القصور.

عندما فتح المسلمون إسبانيا نزل قادتهم ورؤساؤهم بالقصور التي كانت موجودة في المدن المفتوحة، فعندما فتح مغيث الرومي قرطبة أقام في أميرها القوطي المعروف ببلاط قرطبة، ورأي موسي بن نصير أن هذا القصر مناسبا ليكون مقرا للوالي، وتتابع الولاة المسلمون فأقاموا بقصر الإمارة بقرطبة، ونزل به عبد الرحمن الداخل فصار مقرا له ولأبنائه، وأدخلت عليه الكثير من الإضافات والتعديلات، وأصبح بعد ذلك يعرف بالقصر الخلافي.

وأخبرنا عنه ابن بشكوال أنه قصر استغله ملوك اليونان والروم والقوط من قبل، ثم أبدع فيه حلفاء بني مروان، وبنوا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة، وجلبوا له المياه العذبة من جبال قرطبة على مسافات بعيدة، وجروها إلى كل ساحاته ونواحيه في قنوات الرياض،

وتؤخذ منها إلى المباني المختلفة، في أشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة، في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة، وفي هذا القصر القصاب العالية السمو، والمنيفة العلو، لم يري مثلها في مشارق الأرض ومغاربها، فهذا الوصف أبلغ تعبير عما بلغته عمارة القصور، ولنا أن نتخذه كنموذج للتعرف على بقية القصور في الأندلس، مثل قصر جنة العريف وقصر الرصافة وقصر الحمراء وقصور مدينة الزهراء، وكذا حجم البذخ والرفاهية التي وصلت إليها البلاد.

2.1.2. الدور: تعتبر الدور أو المساكن من العمائر المدنية الكثيرة العدد والبسيطة العمارة عموما مقارنة مع غيرها من العمائر نظرا لأن من يسكنها هم عامة الناس وغالبيتهم، وتتفاوت فيها مظاهر الرفاه والبذخ حسب الحالة الاجتماعية لساكنيها.

فإذا كانت القصور الأمراء والخلفاء والوزراء قد كثرت في إسبانيا الإسلامية في العصر الأموي، فإن دور الخاصة والكبراء قد زادت أيضا، حيث حاولوا التشبه بهذه الطبقة في البناء والعمران والزخرفة والتأثيث كل حسب إمكاناته، فقد ذكر المقريزي أن عدد دور الخاصة والكبراء في عهد المنصور بن أبي عامر في قرطبة وحدها وصل إلى 60300 دار، وعدد دور العامة فيها وصل إلى 213077 دار، دون حساب الدور التي أعدت للكبراء وهو ما يسمي حاليا بمساكن الإيجار.

ويمكن تقسيم الدور إلى قسمين: دور خاصة بالناس، ودور رسمية تابعة للدولة سميت في الغالب تبعا لوظيفتها كدور الوزراء، ودار قومة المساجد، ودار الرهائن لحبسهم قبل البت في أمرهم، ودار الصدقة لتوزيع الصدقات، وبيت العمال التي تلحق بالقصور، ودار الصناعة لصناعة المراكب والسفن، ودور خاصة بعامة الناس، ودار الطراز والبرد، ودار السكة.

3.1.2. الحمامات: اشتهرت الحمامات في الأندلس سواء قبل سقوطها أو بعد سقوطها نظرا لارتباطها بالطهارة واعتبارها أيضا أحد مظاهر الرفاهية والحياة الرغيدة وسعة العيش التي عرفت عن الأندلس، وكمؤشر عملت عليه محاكم التفتيش فيما بعد لكشف هوية المسلمين وملاحقتهم.

وتعد الحمامات من محاسن المدن الأندلسية، حيث أشار إليها الأدباء والرحالة أثناء تجوالهم، إذ لم يذكروا مدينة من المدن دون ذكر حماماتها وموارد مياهها، واهتمام سكانها بنظافة أبدانهم ولباسهم، وكانت تقع غالبا بالقرب من المساجد ليسهل على المسلمين التطهر قبل الدخول إلى المساجد، وقد بقي عدد من الحمامات الإسلامية في إشبيلية وبلنسية وميورقة وغرناطة وقرطبة وسرقسطة ومرسية وطليطلة وبسطة، وما بقاء أجزاء منها إلا دليل على صلابتها وفخامتها، وكان يضرب المثل بأهل الأندلس في النظافة، فيذكر المقري أنهم أشد خلق الله اعتناء بما يلبسون وما يفرشون.

3. العمارة العسكرية.

العمارة العسكرية في الغرب الإسلامي لا تختلف كثيرا عن نظيرتها في المشرق الإسلامي سوي في بعض التفاصيل البسيطة ربما، فهي تتنوع بين القلاع والحصون والأسوار والرباطات، وتنتشر في مناطق متعددة لا سيما في شمال بلاد المغرب وفي الأندلس عموما.

1.3. نموذجان من العمائر العسكرية: لعل من أفضل الأمثلة التي يمكن أن ندرسها في العمائر العسكرية هي القلاع والحصون والرباطات لما تشكله من ميزات عمرانية ومعمارية وتقنيات في البناء عبرت على عبقرية المعمار المسلم وتفرده ومزجه بين تراث الحضارات السابقة وبين ابتكاراته وحلوله الإبداعية، ويتجلى ذلك بوضوح في قلعة بني حماد بالمغرب الأوسط ورباط المنستير بالمغرب الأدنى.

1.1.3. قلعة بني حماد: عندما استقل الحماديون عن الفاطميين أسسوا دولتهم على يد حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي سنة 1007 م، في مكان حصين على جبل عجيسة البرنسية المطل على حوض الحضنة، على أنقاض موقع روماني، ووصفها البكري الذي سماها قلعة أبي الطويل، بأنها قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة عمرت بعد خراب القيروان، فأصبحت مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب.

فقد اجتمعت في القلعة جميع الشروط التي ذكرها ابن الربيع، وارتبطت بالعامل العسكري في تأسيسها، فتجلت عبقرية الحماديين في اختيار الموقع المحصن من جميع الجوانب، والذي يكتسي أيضا أهمية تجارية، إضافة إلى كونها عاصمة للدولة الحمادية.

أما من الناحية العمرانية فقد أظهرت الحفريات التي أجريت بها، أن الأجزاء البارزة هي عبارة عن سلسلة من القصور والمسجد الجامع، فقصر المنار به مجموعة من المباني المتلاصقة من الشمال والجنوب، وساحة شبه مربعة، وتم ربط هذا القصر بخزانات مياه وببرج عالي، بالإضافة إلى قصر البحر الذي يعتبر مركبا يضم ثلاث قصور، وقصر الكوكب الذي يقع ما بين قصر السلام وقصر البحر، أما العمائر الدينية فتتمثل في الجامع الكبير الذي لا تزال منارته شامخة إلى اليوم ومسجد قصر المنار، هذا الأخير يعتبر أصغر مسجد في العالم، وبالنسبة لمواد البناء التي استخدمت في بناء منشئات القلعة فطغت عليها الحجارة، نظرا لتوفرها وسهولة الحصول عليها بالمنطقة.

أما الجامع الكبير أو المسجد الجامع الذي لازالت مأذنته شامخة لحد الآن، فمخططه يشبه إلى حد كبير مخطط المسجد الأقصى الأول في القدس، مع اختلاف في وجود الصحن والمئذنة، قد يكون ذا طابع سوري، بينما تعد المئذنة عملا ذا أصل آسيوي (مشرقي)؛ حيث استخدم فيها الآجر والزليج (الخزف المعماري)، وهو أسلوب يرجع أصله إلى بلاد ما بين النهرين ولم يكن شائعا في سوريا أو مصر في ذلك القرن (Saladin, 1909, p. 259).

كانت المياه تنقل إلى القلعة باستخدام ثلاث قنوات رئيسية يتم من خلالها نقل المياه من وادي فرج ووادي الجفين، وعين حمام الزرايف، ليخزن في صهاريج وأحواض متواجدة بالقصور، ومن الناحية العسكرية فالقلعة محصنة طبيعيا حيث تحيط بها الجبال من الجهات الأربعة، كما كانت محاطة بسور ولها ثلاثة أبواب: باب الأقواس في الجهة الجنوبية، وباب جراوة في أقصي الجهة الشمالية، وباب الجنان في الجهة الشمالية الغربية، فالموقع الجغرافي والجانب الطوبوغرافي والتحصينات الدفاعية كلها تعتبر مثالية بالمعايير السائدة في الفترة الوسيطة.

2.1.3. رباط المنستير: الأربطة هي أماكن كان يرابط فيها الجنود المحاربون استعدادا للجهاد، واشتق اسم الأربطة من الآية القرآنية الكريمة، في قوله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ" (القران الكريم، سورة الأنفال، الآية: 60). وفي قوله تعالى: "فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ. (القران الكريم، سورة آل عمران، الآية: 20).

وكانت الأربطة تشاد في الثغور أي على الحدود، سواء في الصحراء أو على شواطئ البحار، وأقدم الأربطة تقع في بلاد المغرب الإسلامي حيث شيد بإفريقية (تونس الحالية) في القرنين الثاني والثالث الهجريين هما: رباط المنستير ورباط سوسة، ويتكون التخطيط المعماري للأربطة من صحن أوسط ومن الجانب القبلي كتلة المسجد، ومن الجوانب الثلاثة الباقية حجرات الجنود المرابطين.

لقد شيد رباط المنستير في تونس هرثمة عام 180 هـ/796 م، ويتكون تخطيطه من مساحة مربعة يحيط بها سور حجري كبير من الخارج، في زواياه أبراج مراقبة دائرية، وبه منارة أسطوانية الشكل، ويتوسط الرباط من الداخل صحن مربع على جوانبه حجرات مكونة من طابقين، ويضم ملاحق عديدة أهمها إسطبلات الخيل وصهاريج للمياه.

4. الجوانب الوظيفية في عمارة الغرب الإسلامي.

تتمظهر عمارة الغرب الإسلامي في أشكال وعناصر متعددة، تجمع بين عدة وظائف تجسد هويتها وانتمائها، وتتراوح وظيفتها بين الجوانب الدينية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، لذلك فمن المهم التعريج عليها لفهم خصائصها ومميزاتها.

تعتبر المدينة المنورة أول مدينة بنيت بعد ظهور الإسلام، لذلك فهي النموذج الأول الذي اقتدت به بقية المدن الإسلامية التي جاءت بعدها، فبعد الهجرة شرع الرسول –صلي الله عليه وسلم–في بنائها، فحدد نواتها ببناء المسجد ليكون مركزا للدولة الإسلامية، وربط مركزها

بأطرافها، وتميزت بأربعة عناصر رئيسية: المسجد وبجواره مسكن الرسول –صلي الله عليه وسلم–، واستبدل بدار الإمارة في المدن التي جاءت فيما بعد، ثم السوق، ويليها مساكن عامة الناس، وعيله فالكثير من المدن الإسلامية خضع تخطيطها لاعتبارات دينية واجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية وعسكرية، كما استفاد المسلمون من خبرات الحضارات السابقة في مجال العمارة.

كما أن الشريعة الإسلامية نظمت العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان والهياكل الاجتماعية للمدن الإسلامية، ونظمت المباني في شكل هرمي كي تعبر عن البعد الديني والاجتماعي، فبنى المسجد وسط المدينة، ثم تليه دار الإمارة، وحولها المدارس والأسواق، ومن ثم تتفرع الشوارع الرئيسية، ثم الحارات، ثم الدروب، أين تتواجد الأحياء السكنية التي تعتبر مجالا لترابط العلاقات الدينية والعائلية.

كما تظهر الوظيفة الدينية للعمارة الإسلامية في هيكلة الفضاء الخارجي والداخلي على حد سواء، مراعاة لمبدأ الحرمة والاحتشام والمحافظة على الخصوصية، ويلمس ذلك من خلال تخطيطها العمراني المعقد، فالأزقة تقود إلى ممرات مسدودة (ممرات غير نافذة) أو مقنطرة خاصة بكل مسكن أو عائلة تقريبا، وانخفاض ارتفاعات الأبواب، وارتفاع الفتحات إلى الأعلى وضيقها، حتي تحجب الرؤية داخل المسكن ويقتصر دورها على إدخال الضوء والهواء، وكسر الإشعاع البصري من خلال المداخل المتدنية المنكسرة، على محاور غير مستقيمة.

5. العمارة كرمز للسلطة.

لطالما كانت العمارة عبر التاريخ تعتبر رمزا لسلطة الحاكم وقوة الدولة وهيبتها وامتد هذا الأمر إلى غاية أيامنا هذه، فبناء المساجد أو توسعتها وبناء القصور الفارهة، كانت من المجالات التي تنافس فيها الحكام المسلمون، ولعل خير مثال علي ذلك هو قبة الصخرة التي بناها عبد الملك بن مروان بقيت على مر العصور ترمز لقوة الدولة الأموية، وكذلك المسجد الأموي بدمشق الذي بناه الوليد بن عبد الملك ومازال إلى اليوم يعتبر مدرسة خالدة في العمارة الإسلامية، ونفس الشأن بالنسبة لقصر الحمراء في غرناطة، والجامع الكبير في قرطبة، وجامع

القيروان بتونس، والجامع الكبير في تلمسان وجامع الكتبية بالمغرب، كما أن القصور وأقسامها كانت دائما رمزا لسلطة الحكام وسطوتهم، فقصر الحمراء بالأندلس وسلسلة القصور التي توجد بمدينة قلعة بني حماد، وقصر المشور بتلمسان.

المحاضرة (04): التطور العمراني من الفتح الإسلامي إلى العصر الفاطمي.

تمهيد.

إن دراسة التطور العمراني في الغرب الإسلامي، مهما جدا لفهم لتحولات والتطورات التي عرفتها المنطقة، منذ الفتح الإسلامي وإلى غاية الفترة الفاطمية، فقد انتقل العمراني من طابعه العسكري البسيط في المرحلة الأولي لتأسيسيه، وظهرت نواته الأولي في بعض المدن كالقيروان والرباطات، إلى مرحلة التوسع والازدهار العمراني والمعماري في عهد الدولة الأغلبية، ثم تحول الثقل العمراني من المناطق الداخلية إلى المناطق الساحلية فبرزت مدنا مؤمنة ومحصنة كالمهدية.

1. مراحل التطور العمراني في الغرب الإسلامي.

1.1. مرحلة التأسيس من الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر الولاة: تمتد هذه المرحلة مع بداية الفتح الإسلامي لبلاد المغرب مع حملة عبد الله بن أبي صرح إلى غاية نهاية عصر الولاة وقيام الدولة الأغلبية، وتميزت بانتقال العمران من الفترة القديمة إلى نشوء عمران إسلامي، وميزها أيضا الطابع العسكري وقلة الاستقرار في البداية، والظهور التدريجي لعمران إسلامي حضري مرتبط بالجيش والسلطة، وتعتبر هذه الفترة بداية وضع الأسس الأولي للمدن الإسلامية في بلاد المغرب، وكانت البداية بالقيروان ورباطي سوسة والمنستير.

2.1. نشأة المدن والمراكز العسكرية الإسلامية الأولي.

1.2.1. القيروان: منذ تأسيسها على يد عقبة بن نافع سنة 50 هـ وأحكم دعائمها أمراء الدولة الأغلبية، ودعم كيانها وأحسن رعايتها خلفاء الدولة الفاطمية، وبلغت شأوها في التقدم والازدهار على يد الخلفاء الصنهاجيين، واقترنت في عصورها المختلفة بأسماء شهيرة وكبيرة في حقول الأدب والعلم والسياسة والعسكر، أصبحت بفضلهم مركز إشعاع ثقافي وديني، ويذكر التاريخ اسم المعز لدين الله الفاطمي كألمع اسم ازدهر به عصر القيروان في عهد الفاطميين، واسم

المعز بن باديس الصنهاجي كرمز لما بلغته القيروان من حضارة في عهد الصنهاجيين، وهي بذلك مركز عسكري وديني وثقافي، لمع بريقه أكثر من الناحية الحضارية في عهد الأغالبة.

ولا بد من الإشارة إلى أن عقبة بن نافع أسسها لتصبح أول مركز للدين الإسلامي وللثقافة العربية في بلاد المغرب، كما جعل منها إبراهيم بن الأغلب التميمي عاصمة للدولة الأغلبية في إفريقيا سنة 184 هـ، وعظمت دولتهم وأنشأوا أسطولا بحريا فتحوا به صقلية ومالطة وسردينية، وعرفت البلاد في عهدهم رخاء وازدهارا من الناحية الاقتصادية والزراعية، إلى أن أسقطها الفاطميون سنة 296 هـ.

ومن الناحية العسكرية كانت القيروان قوة تتحرك على الأرض، وكانت نفوذا وسلطانا باسطا جناحيه على البحر المتوسط وما وراء سواحله من الشعوب والأقطار، كما انصرف المسؤولون إلى تنمية القوة العسكرية للمحافظة على مراكزهم، منذ القرن الأول للهجرة فأنشأوا قوة بحرية لحماية السواحل وفتح الشواطئ الأوربية، فجلبوا المختصين بصناعة السفن والفنون البحرية من أقباط مصر وأنزلوهم في الثغور التونسية خاصة في قرطاجنة، وتمكن الأغالبة فيما بعد من الاستيلاء على أجزاء واسعة من جنوب البحر المتوسط في إيطاليا وبعض الجزر.

2.2.1. رباط المنستير: كما سبق التطرق إليه فقد شيد رباط المنستير في تونس هرثمة عام 180 هـ/796 م، ويتكون تخطيطه من مساحة مربعة يحيط بها سور حجري كبير من الخارج، في زواياه أبراج مراقبة دائرية، وبه منارة أسطوانية الشكل، ويتوسط الرباط من الداخل صحن مربع على جوانبه حجرات مكونة من طابقين، ويضم ملاحق عديدة أهمها إسطبلات الخيل وصهاريج للمياه. ومن خلال تخطيطه وأقسامه العسكرية كسمك أسواره الخارجية، وأبراج المراقبة التي تعلو زواياه، يتبين طابعه الدفاعي العسكري.

لقد سمحت الدراسات لهذا الرباط استعادة مخططه الأصلي الذي يتطابق تقريبا مع رباط سوسة، لأن رباط سوسة كان نموذجا لبناء المنستير وليس العكس، ويعتبر مبني هرثمة بن أعين في المنستير أكثر تطورا من الناحية التقنية لوجود برج إشارات مبكرا لم يعرف في سوسة إلا في فترة متأخرة، كما يتميز بعناصر معمارية كالأقواس النصف دائرية والموتورة،

والفتحات المائلة في جدار قاعة الصلاة بالطابق الأول، أما الطابق الثاني والتوسيعات الجنوبية وقاعة الصلاة الإضافية فلم تكن موجودة في الأصل، ويعود محراب القاعة الجنوبية إلى القرن 16 م، واكتشفت جدران وأقواس قديمة بنيت فوقها عناصر معمارية حديثة.

3.1. نشأة التنظيم الإداري والعمراني: كانت بلاد المغرب الإسلامي ولاية مرتبطة بالخلافة في المشرق الإسلامي، فعندما فتح العرب المسلمون بلاد المغرب قسموا هذه البلاد إلى ثلاثة أقطار هي، المغرب الأدنى: ويطلق عليه أيضا اسم إفريقية ويشمل القطر التونسي بأكمله، وجزءا من شرق الجزائر، وإقليم طرابلس الغرب بما في ذلك ولاية برقة على حدود مصر الغربية. والمغرب الأوسط: ويشمل القطر الجزائري اليوم باستثناء بعض المناطق على الحدود التونسية الغربية. والمغرب الأقصى: ويشمل حدود المملكة المغربية اليوم.

ولم تكن الحدود بينها مدققة حتى في عصر ملوك الطوائف، وبالأحرى لم تكن موجودة في أوقات اتحادها تحت رايات الدول القوية كالموحدين والفاطميين، وكذلك عندما كانت تابعة للخلافة الأموية في دمشق، ثم للخلافة العباسية في بغداد، إلى غاية عهد الخليفة هارون الرشيد الذي منح الاستقلال لها، تحت حكم إبراهيم بن الأغلب التميمي، على أن يدفع ضريبة للخليفة مقدارها 40 ألف دينار سنويا. وفي عصر الولاة ظلت تابعة للمشرق منذ دخلها عقبة بن نافع، وكان الأمويون يعينون واليا عليها يستقر في القيروان، ومن أشهرهم حسان بن النعمان الذي عرب الدواوين، وموسى بن نصير، وعبيد الله ابن الحبحاب، وتميز عهدهم بأعمال جليلة في توطيد الإسلام بين الناس ودعم الاستقرار بإجراء الإصلاحات المختلفة.

ولقد وجدت ثلاثة أنواع من النثر وهي الكتابة المستعملة في المراسلات الرسمية والإدارية، النوع الأول يستخدم في مراسلات الدولة والقضاء والجيش، وأحسن من يمثله على بن أبي الرجال الذي كان رئيسا لقسم المراسلات في دولة المعز بن باديس، والكاتب محمد بن عطية بن حيان. والنوع الثاني هو النثر العلمي المستعمل في التأليف وفنون اللغة والطب والتاريخ والجغرافيا. أما النوع الثالث فهو النثر الأدبي الذي كان مطبوعا بطابع الصنعة عند

أغلبية الكتاب، ومن مظاهر الصنعة الشائعة لديهم، السجع والإكثار من الاستعارات وأنواع المجاز.

أما بخصوص الملامح العمرانية فقد وصف ابن خلدون القيروان بأن عقبة اختطها وبنى بها المسجد الجامع، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم، وكان دورها 3600 باع، وتمت في خمسين سنة. ووصفها المقدسي بأنها كانت مصرا بهيا جمع أضداد الفواكه، والسهل والجبل، مع علم كثير، لا تري أرفق من أهلها. كما ذكر ابن خلدون أيضا استبحار عمران القيروان وقرطبة، والعلوم والصنائع والأسواق النافقة. مما يدل على ازدهار العمران وتطوره واتساعه في الغرب الإسلامي.

2. مرحلة التوسع والازدهار في العصر الأغلبي.

بعدما تأسست وتوطدت أركان الدولة الأغلبية على يد إبراهيم بن الأغلب التميمي سنة 184 هـ/800 م، عرفت توسعا وازدهارا منقطع النظير في مجال التطور الحضاري والعمراني، فاتسع وتكثف عمرانها، وتطورت المنشآت المعمارية.

1.2. اتساع وتكثف العمران: بعدما أقام إبراهيم بن الأغلب الخطبة لبني العباس على المنابر ورفع شعارهم، ودفع الخراج المقرر عليه وهو 40 ألف دينار، ونقش اسم الخليفة على السكة، شيد مدينة جديدة سماها العباسية (القصر القديم بتونس) على بعد ثلاثة أميال جنوب القيروان تمجيدا لهم، ورغم الثورات تمكن إبراهيم بن الأغلب بفضل شجاعته وذكائه وقوة مؤيديه من الجماعات اليمنية والقيسية، من إقامة دولة جديدة تمثل الخلافة العباسية في إفريقية.

لقد كانت المدن والقري في هذا العهد محطات ومراكز العلم والشيوخ والتجار، فنهضت حركة العمران والبناء إلى جانب الزراعة، واحتلت تونس محل مدينة قرطاجنة، لاشتمالها على مبان وأسواق ودار صناعة السفن، وأنشأ هيثمة بن أعين القصور للمرابطين والزهاد والمحاربين على السواحل.

2.2. تطور المنشآت المعمارية: إن من أعظم إنجازات الأغالبة المعمارية هي، تجديد مسجدي القيروان وتونس، المعروفان بمسجد عقبة بن نافع ومسجد الزيتونة، وبناء قنطرة أم الربيع، وحصن مدينة سوسة، كما قام خامس أمراء الأغالبة أبو العباس محمد بن الأغلب ببناء جامع سوسة الذي يعتبر من أجمل الاثار المعمارية الإسلامية في إفريقية، وأنشأ أيضا رباط سوسة المعروف بقصر الرباط سنة 206 هـ/821 م، ويتكون تخطيطه من بناء مربع ضلعه 39 م تقريبا، وجدرانه من الحجر، ودعمت بأبراج مراقبة دائرية الشكل، ووزعت على امتداد جدرانه وزواياه الخارجية.

واهتم الأغالبة بإنشاء الأسوار والأبراج لمدنهم، وخاصة الساحلية منها، وأنشأوا دار تونس لبناء السفن، ودار سوسة لصناعة الأسلحة، اللتان كان لهما الفضل في فتح صقلية، وتبقي الرباطات من أشهر منشآتهم العسكرية وكانت تخصص للمجاهدين والمرابطين ما بين حاميات رسمية وأفراد متطوعين، فمن المعروف أن الرباط كان للأفراد، أما الجنود الرسميون فكانت تبنى لهم معسكرات.

واعتني الأغالبة ببناء صهاريج وجباب المياه والمواجل، وتعتبر مواجل تونس والقيروان وسوسة من الآثار الجميلة، فقد أنشأ زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغالبة قصر العروس على إحدى ضفتي ماجل طوله 500 ذراع وعرضه 400 ذراع وجلب له الماء بالسواقي وسمي هذا الماجل الواسع بالبحر، وازدهرت الحياة الاقتصادية في الدولة الأغلبية بفضل الموانئ المنتشرة على شاطئ البحر المتوسط كسوسة وتونس وبجاية.

3. مرحلة التحول وإعادة التمركز في العصر الفاطمي.

في عام 296 هـ/909 م سقطت مدينة الأريس القريبة من القيروان في يد قوات أبي عبد الله الشيعي، ومنها دخلوا القيروان العاصمة السياسية للأغالبة، بعد رحيل زيادة الله الأخير إلى مصر سنة 296 هـ/909 م، وهكذا دخلت بلاد المغرب عهدا جديدا، وانتقل الفاطميون من تشييد عمارة الدعوة إلى عمارة الدولة، وكذا تحقيق هيبتها وفرض سيطرتها على أقاليم بلاد المغرب.

1.3. انتقال الثقل العمراني نحو السواحل: منذ سقوط القيروان بأيديهم، ومع مرور الوقت بدأت أنظار الفاطميون تتجه من المناطق الداخلية لبلاد المغرب كالقيروان ورقادة نحو المدن الساحلية المطلة على البحر المتوسط، لمواجهة هجمات البيزنطيين والأمويين في الأندلس، ومواجهة الثورات مثل ثورة أبي يزيد مخلد بن كداد صاحب الحمار، وبذلك انصرف اهتمامهم نحو العمران في المدن الشمالية الساحلية.

2.3. تأسيس المهدية كعاصمة جديدة: لم يؤسس الفاطميون مدنا كثيرة في بلاد المغرب لأن نشاطهم غلب عليه الجانب الدعوي لإقناع الناس بانتمائهم المذهبي والعسكري بسبب كثرة الثورات ضدهم، وتركز كثيرا في إفريقية أي المغرب الأدنى، لذلك أسسوا مدينة المهدية سنة 300 هـ/916 م، على يد عبيد الله المهدي وجعلوها عاصمة لهم، ودعموها عسكريا حتى صارت مركزا لحكمهم وقاعدة عسكرية بحرية هامة.

وتعتبر المهدية من أهم المدن في إفريقية، وكانت تسمي جمة، يحيط بها البحر المتوسط من ثلاث جهات، أسسها الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي، وسميت نسبة إلى اسمه، حيث بدأ بنائها سنة 300 هـ وانتقل إليها سنة 308 هـ، وبذلك أصبحت عاصمة للدولة الفاطمية، فقد كان الفاطميون يسعون إلى السيطرة على كامل أرض بلاد المغرب الإسلامي، لأنهم يرون أحقيتهم بإمامة العالم الإسلامي على حساب العباسيين آنذاك، لذلك سخروا على إمكانياتهم لتحقيق هذا الهدف.

ونظرا لأهمية التحصين والأمان في إنشاء المدن، فقد اختير موقع جغرافي حصين للمهدية، فقد أشار إلى ذلك الخليفة عبيد الله المهدي بوضوح بعد إتمام مدينة المهدية والاستيطان فيها بقوله: "اليوم آمنت على الفاطميات"، كما تميزت المهدية عن غيرها من المدن بموقعها الساحلي والواجهة البحرية على البحر المتوسط، مما زادها أمنا وحصانة، بالإضافة كونها شبه جزيرة تحيط بها مياه البحر من ثلاث جهات واتصالها باليابسة.

ومن الناحية المعمارية توجد بالمهدية حصون منيعة لحمايتها والوقوف في وجه أي عدوان يهددها، وهذا ما حصل عندما صمدت في وجه الثورات التي هددت كيان الدولة

الفاطمية، مثل ثورة أبي يزيد مخلد بن كداد الخارجي الإباضي، الذي رفض الدعوة الفاطمية، وكادت ثورته تنهي الوجود الفاطمي لولا مناعة المدينة بموقعها وأسوارها.

المحاضرة (05): العمران في الأندلس: مراحل تطوره وخصائصه

تمهيد.

يرتبط تاريخ الأندلس إلى حد كبير ومباشر بعمرانه ، لأنه مرآة لما مرت به البلاد من تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية، فالعلاقة وطيدة بين السياقات السياسية ولما عرفته من ازدهار أو تراجع أو انكماش للعمران، فهو تنظيما يشمل المجال ويؤثر على ما يحتويه من حياة اجتماعية، وتمحورت المدينة الأندلسية حول المسجد الجامع، وارتبطت الخصائص المعمارية المميزة للأندلس بالجوانب الجمالية والوظيفية للعمارة، وامتزجت بحيوية وإبداع المجتمع الأندلسي وتكيفه مع بيئته، كما شهد العمران مراحل متعددة ومتنوعة تبعا للظروف المحيطة بالبلاد، منذ الفتح الإسلامي الذي استغل ميراث المدن الرومانية والبيزنطية كقرطبة وغيرها، ثم مرحلة الازدهار في العهد الأموي التي تجلت في المساجد والقصور مثل مسجد قرطبة الذي بناه عبد الرحمان الداخل، ومرحلة التراجع في عهد ملوك الطوائف، ومرحلة إعادة التنظيم في عهدي المرابطين والموحدين، ليصل إلى مرحلة الانكماش في عهد بني نصر.

1. مراحل تطور العمران في الأندلس.

يركز هذا المحور على نشأة المراكز العمرانية في الأندلس مع وصول الفتح الإسلامي إليها، وكيفية استغلال العناصر المعمارية للمدن القديمة سواء الرومانية أو البيزنطية، وتطور العمران وازدهاره في العصر الأموي، والتحولات التي عرفها خلال عهد ملوك الطوائف، وإعادة تنظيمه وبعثته في فترتي المرابطين والموحدين، وانكماشه وتميزه في عهد بني النصر وخاصة في مدينة غرناطة.

1.1. نشأة العمران مع الفتح الإسلامي واستغلال المدن القديمة: كانت المساجد أساس التنظيم العمراني في المدن الإسلامية الأولي بالأندلس، لأنها هي المركز الديني المسيطر على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المدن، وحولها تلتف بقية المراكز العمرانية، فكانت حولها تقام الأسواق والحمامات والفنادق والمساكن والمقابر والقيسريات، كما كانت تعقد فيها الاجتماعات، ويذكر ابن سهل في كتابه الأحكام الكبرى، مجموعة من المساجد، مثل:

مسجد الشفا، ومسجد عجب بن يقعان، في الجهة الغربية لقرطبة، ومسجد الأمير هشام، ومسجد مقبرة البرج، ومسجد أبي رياح، ومسجد عباد، ومسجد أبي الوليد. وتشير المصادر التاريخية إلى وجود الاف المساجد بهذه المدينة وحدها.

لقد تسابق الخلفاء والأمراء وكبار موظفي الدولة، ومختلف فئات المجتمع الأندلسي، من العلماء وغيرهم في بناء المساجد داخل قرطبة، رغبة في الأجر والثواب، وكانت المساجد قريبة من الأسواق والمقابر، ووجود حدائق في بعض الأرباض بمحاذاة المنازل، ونظرا لأهمية الأسواق في المدينة فقد استحدث الأمويون (138–422 هـ) أسواقا موازية في كل ربض من أرباض المدينة لمواكبة تطورها العمراني والديمغرافي، فامتد النشاط التجاري إلى السويقات في الحارات الأحياء.

أما بخصوص استغلال المدن والمواقع القديمة، فقرطبة أصلا اسم أعجمي، فقد ذكر البكري أن تفسير قُرظبة بلسان القوط يعني القلوب المختلفة، أما قيسارية فهي تعريب للكلمة اليونانية kaisarerie وتعني السوق القيصري التابع للدولة، وهو بناء على شكل مستطيل أو مستطيل، بداخله طريق وتتوزع في الحوانيت على صفين، ومسقف بالأقبية، ضمن المنطقة التسويقية المركزية، تباع فيه البضائع الثمينة عادة، ففيه دكاكين صغيرة مخصصة لبيع سلعة واحدة أو عدد قليل من السلع. كما حول المسلمون أغلب المساجد إلى كنائس، وهذا ما يدل على أن هناك منشآت معمارية رومانية أو بيزنطية تم استغلال مواد بنائها وعناصرها المعمارية، أو أماكن وجودها، فبقيت أسمائها دالة عليها وعلى أصلها.

2.1. العمران وتطوره وازدهاره في العهد الأموي: بعد سقوط الدولة الأموية بالشام، استطاع عبد الرحمن الداخل أحد أمراء بني أمية أن يؤسس دولة جديدة في الأندلس، فشرع في بناء المدن والمساجد والقصور، فظهر فن العمارة جليا في الأبنية الدينية والمدنية، فبنو المساجد، ويعد جامع قرطبة من الصروح المعمارية التي تدل على تطور العمارة الأندلسية في العهد الأموي لما يتمتع به من تصميم وعناصر معمارية رشيقة وجميلة ومواد بناء متينة.

فقد استخدمت فيه مواد بناء ثمينة ونادرة، فأعمدته رخامية، وباب مقصورته مذهب، وأجري الذهب على جدار المحراب وما يليه وعلى الفسيفساء، وثريات المقصورة من فضة خالصة، ويبلغ ارتفاع الصومعة 73 ذراعا، إلى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن، وفي أعلاها تفاتيح ذهب وفضة، اثنتان منها ذهب إبريز وواحدة فضة، وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة ورمانة ذهبية صغيرة، على رأس الزج وهي إحدى غرائب الأرض، وفي عهد المستنصر هدمت الميضأة وبنى موضعها أربع ميضآت في كل جانب من الجانب الشرقي والغربي منها اثنتان، كبري للرجال وصغري للنساء، أجري في جميعها الماء في قناة اجتلبها من سفح جبل قرطبة، ولا يتسع المجال للتطرق إلى كل مظاهر التطور والازدهار في العمران الأندلسي خلال العهد الأموي، لأنها متعددة ومتنوعة، في مختلف العمائر، وهذا ما يدل على حجم التقدم والرفاهية التي عرفتها الحضارة الإسلامية.

3.1. العمران وتحولاته خلال فترة ملوك الطوائف: يعتبر عصر ملوك الطوائف نقطة تحول في الأندلس، فبعد تشكل حكومة قوية ابتداء من القرن الثالث الهجري، جاءت عائلات صغيرة، مما خلق التوتر والأزمات في المنطقة، ففي أواخر العهد الأموي تشكلت دويلات صغيرة مستقلة، دخلت في حروب مع جيرانهم المسلمين، واستنجدوا خلالها بجيرانهم المسيحيين في الشمال، مما جعل الأندلس تدخل في أزمات سياسية وحالة من عدم الاستقرار.

فانقسمت البلاد إلى ستة أقاليم رئيسية يقودها أمراء، وحدثت تغييرات في جذرية في البنية الاجتماعية والعرقية والثقافية، بسبب سيطرة المسيحيين على أجزاء واسعة من شبه الجزيرة الإيبيرية، وممارستهم للتهجير القسري، وكان الاستثناء الإيجابي هو الازدهار الثقافي والعلمي، بسبب المنافسة بين الملوك في استقطاب العلماء والأدباء والإنفاق المالي عليهم وتوفير الهياكل التعليمية، فبنوا المكتبات الكبيرة، وبذلوا جهودا في جمع الكتب من أماكن مختلفة لإثرائها، مما أدي إلى ظهور التخصص المعرفي، وظهور علماء العالم، وبالتالي فمن الناحية العلمية، يمكن اعتبار هذا العصر ذهبيا للتاريخ الأندلسي، وعليه فهذا الازدهار في المجال العلمي والأدبي لم ينعكس بوضوح على المجال العمراني ماعدا في بناء المكتبات الكبيرة والفخمة.

4.1. العمران وإعادة تنظيمه مع المرابطين والموحدين: بعدما تأسست الدولة المرابطية على يد عبد الله بن ياسين الذي نشر دعوته في بلاد المغرب، وبعد وفاته اتبع خلفائه نفس النهج في البناء والتشييد، ونتيجة توسع رقعة دولتهم، شيدت الكثير من المباني ليسكن فيها أتباعهم، كما قامت الدولة الموحدية على أنقاض الدولة المرابطية على يد الإمام المهدي بن تومرت، فبنوا مدنا جديدة في كل البلاد التي فتحوها، وعرف العمران في عهد الدولتين تغييرات ملحوظة سواء من حيث إعادة التنظيم المجالي، أو حيث التقنيات المعمارية التي أدخلوها وأبدعوا فيها.

لقد اهتم المرابطون بالعمارة والفن، وأدخلوا التطعيم في العمارة بالصدف والألوان، التي هي سمة من سمات العمارة الأندلسية التي أخذت شهرة لا يضاهيها بلد من بلاد العرب، حيث أعاد المرابطون روح الإبداع والازدهار إلى الحواضر الأندلسية بعد الخمول والضعف الذي أصابها، وأولوا عناية خاصة لتشييد المساجد والكتاتيب والرباطات والمكتبات وقصور الأمراء، ففي الأندلس كانت أبنية الكتاتيب ذات هندسة مميزة عن باقي الأمصار، وكان المسجد ذو أهمية كبري في التعليم وحافظ على مكانته الدينية والتعليمية، وأخذت الرباطات تربط شيئا فشيئا بين الحياة الجهادية والحياة الفكرية والثقافية، فكان الجهاد مزدوجا جهاد السيف وجهاد القلم، واعتني المرابطون ببناء المكتبات فاهتم الأمراء باقتناء الكتب والتشجيع على نسخها، كما شيدوا القصور وأضفوا عليها طابعا فكريا وحضاريا، فازدهر فيها التعليم وانعكس على ثقافة الأمراء.

أما الموحدون فقد أولوا للعمران اهتماما كبيرا، فأنشأوا الكثير من المدن الجديدة، وعموا على تزويدها بكل ما تحتاجه من منشآت مدنية وعسكرية، مثل المساجد والمستشفيات والمدارس والفنادق والحمامات والقناطر، وأدخلت الكثير من التعديلات على المدن الجديدة، فاهتم عبد المؤمن بن على بالبناء والتشييد، ونفس الشئ بالنسبة لخلفائه من بعده، فابنه أبو يعقوب يوسف أنشأ الكثير من المساجد والقصور والمدن بالأندلس، وعرفت حركة البناء والتشييد دفعا جديدا في عهد المنصور، فذكره المراكشي بقوله أنه كان مهتما بالبناء وطوال أيامه لم يخلو من قصر

يستجده أو مدينة يعمرها، وعرفت الأندلس من بعده تراجعا في حركة البناء والتعمير، نظرا لأفول دولة الموحدين.

2. العمران الأندلسي وخصائصه.

لم يشذ العمران الأندلسي عن القاعدة المتبعة في العمران الإسلامي عموما، فالمسجد بقي هو مركز المدينة وتتوزع حوله بقية المنشات الأخرى كقصر الإمارة والسوق والدور السكنية، وجمعت هذه المنشات بين الجمال والوظيفة، مع الحفاظ على الخصوصية من خلال انكسار المداخل والأزقة النافذة والغير نافذة والنوافذ الضيقة العالية، وتخطيط المسكن العربي الأندلسي الذي يتمحو حول فناء داخلي تحيط به أروقة تأتي بعدها الحجرات الأرضية، أما الغرف العلوية فتحيط أيضا بشرفات تطل على الفناء، وعرفت الأندلس تطورا في البنية التحتية من خلال جلب المياه في قنوات من مصادرها المختلفة، وترصيف الطرق بالحجارة المسطحة وهندسة الحدائق الجميلة التي تعبر عن مدي الرفاهية التي عرفتها البلاد.

3. النماذج التطبيقية للعمران الأندلسي والعوامل المؤثرة فيه.

يوجد عاملان حضاريان أثرا في تكوين المدينة الإسلامية، وهما العامل الروحي والعامل المدني، فالأول يتعلق في تكوين المدينة الإسلامية بتشييد المسجد فيها ليكون له أثره الملموس، والثاني االعامل المدني ويظهر جليا في تخطيط الدور السكنية، وينشأ من تزاوج هذين العاملين علاقات ترسمها أطر الشريعة الإسلامية وينفذها الحاكم، دون إهمال التفاعل بين الفقهاء والشعب لأجل المصلحة العامة، وكل ذلك يدخل في إطار تخطيط المدينة الإسلامية وعمرانها، ونشاطات الإنسان المسلم وعلاقاته بجيرانه.

1.3. التأثيرات المشرقية والبينية: انتقلت التأثيرات العمرانية من المشرق العربي إلى الأندلس وتفاعلت مع البيئة الأندلسية مما نتج عنه طرز معمارية مبتكرة وجديدة، على خلاف ما كان سائدا في بناء المساجد منذ عهد الرسول –صلي الله عليه وسلم–والخلفاء الراشدين، من تقشف وتجنب مظاهر البذخ والترف، وكذلك الدور السكنية في مكة والمدينة، فإن الأمويون خالفوا هذا الأمر مع وجود عاصمة جديدة لهم في دمشق، فأصبح تشييد المساجد لا يقل فخامة عن

المعابد الوثنية والكنائس المسيحية، سواء من حيث اتساع البناء أو استخدام الحجارة والأعمدة وتزيينها، وإدخال زيادات متتالية على المساجد تتلائم مع ظروف كل عصر من العصور، وتبرز قوة وغني الدولة، وأصبح للخلفاء الأمويين قصورا لا تقل روعة وجمالا عن نظرائهم البيزنطيين، وكذلك بيوتات علية القوم المقربين من السلطة الحاكمة.

وانتقلت هذه الأفكار العمرانية والمعمارية الجديدة إلى الأندلس فولدت فنا زخرفيا وأنماطا معمارية جديدة، واستمرت في الأندلس حتى بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق على يد العباسيين سنة 132 هـ/ 750 م، قرابة ثلاثمائة سنة، محافظة على العناصر الفنية الدمشقية الأصل، وابتكار آيات فنية جديدة كان لها شأن ملحوظ فيما أنتجته الحضارة الإسلامية هناك من أعمال فنية خالدة.

2.3. تأثير العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تشكل المدن: إن الاستقرار السياسي واستتباب الأمن لمدة طويلة، واتساع رقعة الدولة وكثرة فتوحاتها يؤدي حتما إلى تدفق الأموال على خزينتها، وتناغم الحياة الاجتماعية وانسجام مختلف فئات المجتمع، يستدعي صرف الفائض منها في بناء مدن جديدة لاستيعاب سكانها وتوفير الخدمات الضرورية لهم، من مساكن ومرافق عامة كالمساجد والمدارس والطرقات والساحات والأسواق والحمامات والمطاحن وغيرها، لكن أكثر من ذلك فالعمائر ذات الطابع الرسمي التابعة للدولة تصبح من مظاهر قوة الدولة وغناها وهيبتها، لذلك يتفننون في بنائها سواء من حيث الشكل المتعلق بضخامتها وحجمها، أو المضمون المتعلق بفخامتها المعمارية من زخارف ورسوم وكتابات تزينية.

3.3. التمازج بين التأثيرات المشرقية والخصوصيات المحلية: إن من بين مظاهر هذا التمازج هو مسألة غرس الأشجار في صحن المسجد، حيث اتبع الأندلسيون مذهب الإمام الأوزاعي فقيه أهل الشام الذي كان يبيح ذلك، مخالفين المذهب المالكي السائد في الأندلس، والذي يحرمها ويعلن عن كراهيتها، مما يعكس تأثرا بالتقاليد المشرقية الشامية في العمارة. وحدث أيام صعصعة بن سلام عندما ولي الصلاة في جامع قرطبة، أن غرست شجرة في صحن المسجد

الجامع، جريا على مذهب الأوزاعي والشاميين، وهو ما يمثل انتقالا لتقاليد عمرانية مشرقية وتطبيقها في البيئة الأندلسية المحلية، ولكن مالكا وأصحابه يكرهون ذلك.

المحاضرة (06): العمران عند الفاطميين في بلاد المغرب الإسلامي: مراحله وخصائص تطوره.

تمهيد.

يعتبر العمران الفاطمي في بلاد المغرب الإسلامي واجهة سياسية وحضارية للدولة الفاطمية التي بسطت نفوذها على المنطقة قبل أن تنتقل إلى مصر، وكانت مدنهم وسيلة للتحكم في المجال العمراني، وتوسيع نفوذهم خاصة في المغرب الأدنى، ووظفوا العمران في الدفاع عن كيانهم ضد القلاقل والثورات المناوئة لهم، فالعمران في عهدهم مرّ بثلاث مراحل، شملت التأسيس والاستقرار والتوسع، وهذه المراحل يعكسها التطور العمراني لمدنهم وعواصمهم الرئيسية، مثل رقّادة والمهدية والمنصورية، وما احتوته من المنشآت المعمارية الدينية والمدنية والعسكرية، كالمساجد، والأسوار والأبراج والأبواب، والقصور، حيث يلاحظ مدي التنظيم المجتمعي بين الأهالي والسلطة الحاكمة.

1.مراحل تطور العمران الفاطمي في بلاد المغرب.

سنتطرق في هذا المحور إلى مرحلتين هامتين من مراحل تطور العمران الفاطمي في بلاد المغرب الإسلامي، وهما: مرحلة مدينة رقّادة، ومرحلة مدينة المهدية.

1.1. مرحلة مدينة رقّادة: تمثل مدينة رقّادة المرحلة الأولي من تطور العمران الفاطمي، فهي من حواضر المغرب الأدنى، وإن كانت أقل شهرة من القيروان، وحتى أنها لا تقارن بالمهدية التي عمرت طويلا وبرزت أكثر منها، لكنها جاءت في وقت كان الأغالبة قد بلغوا شأوا في التقدم والازدهار، بناها الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد الأغلب عام 263 هـ، فكانت بمثابة العاصمة للأغالبة، وهي تقع على مسافة أربعة أميال جنوب القيروان، واتسعت حتى بلغ قطرها 10 كلم، وسكنها بادئ الأمر عبيد الله أول حكام الدولة العبيدية الفاطمية، قبل أن ينتقل إلى المهدية، وفقدت تدريجيا مكانتها حتي زالت آثارها أيام المعز لدين الله الفاطمي، وصارت خرابا كئيبة بعدما كانت عامرة بسكانها، وعرفت رقادة بالزراعة والتجارة والتربة الخصبة الصالحة للزراعة ووفرة المياه، وكان لها أسطولا بحريا قويا، وفي الجانب العمراني احتوت على مرافق

عديدة كالجامع الكبير والأسواق والحمامات والقصور الفخمة، كقصر بغداد وقصر العروس. لكن كل ذلك تراجع مع الخراب الذي لحق بها.

2.1. مرحلة مدينة المهدية: أما المهدية فتمثل المرحلة الثانية من التطور العمراني، حيث كانت حاضرة الفاطميين وعاصمتهم السياسية ومقر حكمهم في المغرب الأدنى وعموم المغرب، بناها عبيد الله المهدي لحماية ملكه، خاصة أن الدولة في بداياتها لم تستقر بعد، وهناك عامل استراتيجي أدي لإنشاء رقادة ويتعلق بالجانب العمراني، فهي تقع في سهل فسيح لا يفي بالأغراض الدفاعية الضرورية، لأنها معرضة دوما للأخطار، لذلك اختار مكانا على طرف البحر شرق المغرب الأدنى، على شكل جزيرة متصلة بالبر، وبنى دار الصناعة في جوف الجبل تتسع لمئة مركب وزودها بمخازن الطعام ومواجل المياه، وشيد بها القصور والدور السكنية.

وكغيرها من العواصم والحواضر تعرضت للأطماع الخارجية والثورات، ومنها ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذي حاصرها سنة 334 هـ لمدة ثمانية أشهر، وبعد اجتياح القبائل الهلالية لبلاد المغرب، خربوا عديد المدن والحواضر، ومنها مدينة المهدية، ثم تعرضت للهجمات البحرية من طرف أساطيل جنوة وبيزا سنة 480 هـ، ثم احتلها النورمان سنة 543 هـ، حتى حررها الموحدون من أيديهم عام 554 هـ، عندما وحدوا كامل بلاد المغرب الإسلامي، واحتوت في الجانب العمراني على مرافق متنوعة، وكانت بالقرب منها مدينة جعلت للعامة ولقبائل كتامة تسمي زويلة يفصل بينهما سور نظرا لتوجس المهدي وخلفائه من الأهالي، وشيد المهدي قصرا لابنه القائم والجامع الكبير، وبنى بها المعز لدين الله مصنعا للسفن، وكانت في عهد المعز بن باديس الزيري عامرة بالمرافق والأسواق والحمامات والمكتبات والقصور والدور السكنية.

أما من الناحية العمرانية، فقد شهدت المدينة نوعاً من الفصل السكاني منذ تأسيسها؛ إذ لم توجد أحياء شعبية داخل المهدية "الأميرية"، بينما خُصصت ضاحية زويلة للعامة والأسواق، وكان يفصل بينهما المصلى وسور ثان، وتصف المصادر التاريخية زويلة بجمال أسواقها واتساع شوارعها وذكاء تجارها، حيث كان هؤلاء التجار والحرفيون يدخلون المدينة

الأميرية للعمل نهارا ثم يعودون لزويلة ليلا، كما تشير إلى معلومة لافتة ذكرها الإدريسي، وهي غياب المقابر داخل المهدية في ذلك العصر، حيث كان يتم نقل الموتى عبر القوارب لدفنهم في المنستير.

3.1. مرحلة مدينة المنصورية: يمكن اعتبار المنصورية كمرحلة ثالثة من التطور العمراني الفاطمي في بلاد المغرب، نظرا لأهميتها السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية، وهي العاصمة الفاطمية الثانية بعد المهدية، فقد وصفها المقدسي من الناحية العمرانية بقوله: "هي مدورة مثل الكأس لا يرس مثلها ودار وسطها على عمل مدينة السلام والماء يجري وسطها، شديدة العمارة حسنة الأسواق بها جامع السلطان وعرض سورها 12 ذراعا منفصلة عن العمارة بينها وبين المصر عرض الطريق وتجار يغدون ويروحون إليها من المصر على حمير مصرية والأبواب باب الفتوح وباب زويلة وباب القصارين كلها محددة الحيطان آجر مكحل الجيل".

وكان المنصور أبا الطاهر إسماعيل هو من أمر ببنائها ولا تبعد إلا بحوالي نصف ميل جنوب شرق القيروان، في موقع يعرف بصلب الجمل بعد قضائه على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار، وانتقل إليها حسب رواية القضاعي عند صلاة الظهر يوم الخميس لليلة بقيت من جمادي الآخرة سنة 336 هـ، وعمر المنصور أسواقها واستوطنها وأصبحت المركز الرسمي للخلافة الفاطمية، وبنى سورها بالطوابي وجعل لها أربعة أبواب: باب قبليا وباب شرقيا سماه باب زويلة وباب جوفي، وباب غربيا سماه باب الفتوح، ونصب عليها أبوابا ملبسة بالحديد، ثم بنى فيها القصور الشامخات والأبنية الرفيعة، وغرس فيها الغرس البديعة، وجلبت إليها المياه المنيعة، ومن قصورها: مجلس الكافور وحجرة التاج ومجلس الريحان وحجرة الفضة وقصر الخلافة.

ومن خلال ما سبق يمكن القول أنّ تطور العمران الفاطمي بدأ تدريجيا بمرحلة التأسيس ذات الطابع الدفاعي العسكري، كما تجسد في مدينة المهدية التي عكست حاجة الدولة إلى الحماية والاستقلال السياسي. ثم انتقل إلى مسار التنظيم والتوسع، حيث ظهرت المنصورية كنموذج جديد يعبر عن التحول نحو البعد الاحتفالي والسياسي في تخطيط المدن، واتساع النفوذ، وتعددت المراكز العمرانية بهدف تعزيز السيطرة الإدارية على الأقاليم، قبل أن تعرف

هذه الديناميكية الجمود نتيجة الاضطرابات الداخلية، مما مهد لاحقا لمرحلة جديدة خارج إفريقية مع الانتقال إلى مصر.

2. خصائص التطور العمراني الفاطمي في بلاد المغرب الإسلامي.

يشمل هذا المحور تحليل أهم خصائص التطور العمراني في العهد الفاطمي ببلاد المغرب الإسلامي، وبالأخص في المغرب الأدنى مهد الدولة الفاطمية، من خلال معالجة، الخصائص التخطيطية، والخصائص الدفاعية، والخصائص المعمارية.

1.2. الخصائص التخطيطية: العمران الفاطمي واصل نفس النهج التخطيطي المعروف في العمران الإسلامي بصفة عامة، حيث تقام المدن على مركزية المسجد الجامع والقصير وتحيط بهما الأحياء السكنية والمرافق العامة الأخرى، لكن المدن كانت أكثر انغلاقا بالأسوار المتينة، نتيجة الظروف الأمنية وكثرة الأعداء والثورات، وأقل توسعا حتي يتم التحكم فيها جيدا، وتميزت بالفصل بواسطة أسوار خاصة بين المجال الخاص الذي يضم الخليفة وحاشيته وأعوانه، والمجال العام الذي يضم الأهالي والقبائل البربرية المتعاونة مع الفاطميين، وهذا لقلة ثقتهم فيمن سواهم وارتكابهم مجازر في حق المخالفين لهم، لذلك هم يخافون من انتقامهم وردة فعلهم ضدهم.

إن اشتراط المركزية في مواقع المساجد تسهل الوصول إليها من كل الأماكن المحيطة، بمسافات متقاربة نوعا ما، ولعل اختيار قلب المدينة ليكون مسجدها، يعود إلى المكانة التي يحتلها الإيمان في قلب المسلم، والمسجد الجامع يمثل العلاقة الترابطية، بين كافة أنحاء المدينة المسلمة، فكما تحتل الكعبة مركز العالم الإسلامي، ويتوجه إليها المسلمون خمس مرات في اليوم لأداء الصلاة، فإن المسلمين في المدينة يتوجهون إلى المسجد خمس مرات للصلاة فيه، والفرق بين المسجد الجامع ومساجد الصلوات الخمس، يعود إلى أن الأول هو الجامع لشمل المدينة كل يوم جمعة، في خطبة أمير المدينة وما تحمله من مغزي سياسي واجتماعي.

وما يؤكد مركزية الجامع والقصر في التخطيط الفاطمي هو قيام المهدي كما سلف ذكره ببناء قصر المهدي والجامع في مركز مدينة المهدية، وركز الفاطميون في مدنهم على المدن

المغلقة بأسوار عريضة ومحصنة، فبنوا المهدية لحماية ملكهم وأنفسهم في أرض تختلف عنهم في المذهب، ولا يعرفونها، وبين قبائل تعودت على التمرد والعصيان والثورات، ويخافون انقلابها عليهم، وبما أن رقّادة تقع في سهل فسيح يصعب الدفاع عنه، وهي معرضة للأخطار، اختاروا مكانا استراتيجيا لبناء المهدية على ساحل البحر المتوسط، شرق المغرب الأدنى، وسماها المهدية تيمنا باسمه، وهي شبه جزيرة متصلة بالبر، في مكان منيع، تم تزويده بدار لصناعة السفن، وملاحق لوجستية للتزود بالطعام والمياه.

ومن أبرز سمات العمران الفاطمي هو الفصل بين المجال الخاص المتمثل في مدن الخلفاء وعائلاتهم وأعوانهم المقربين، مثل مدينة المهدية، والمجال العام الذي يضم الأهالي والقبائل المتحالفة مع الفاطميين، مثل مدينة زويلة التي بنيت بالقرب من المهدية لإسكان العامة من أهل المغرب الأدنى وقبائل كتامة، ويفصل بينهما سور، لأن المهدي وخلفائه كانوا شديدي التوجس من الأهالي.

أما ما يخص محدودية التوسع في العمران الفاطمي فهو أمر شائع، لأن المدن التي شيدوها طغي عليها الطابع الرسمي السلطوي، فهي تحتوي على المرافق الخاصة بالخلفاء كالقصور والدواوين ومعسكرات الجيش الذي يحميهم، وكانت معزولة عن بقية المدن ذات التوسع العفوي التي يسكنها الأهالي، وحتى يسهل الدفاع عنها، ويستطيعون من خلالها توفير الحماية اللازمة للخلفاء المتعاقبين على الدولة الفاطمية.

2.2. الخصائص الدفاعية: بعد نجاح الفاطميين في طرد الأغالبة من إفريقية، ونقل دعوتهم وسلطتهم من قلاع كتامة إلى صبرة (المنصورية) بالقرب من القيروان، ثم إلى المهدية، أول عاصمة إسلامية ساحلية، والقيام بالإصلاح العقدي، وتقديم المراكز الإسماعيلية اللاحقة على أنها دار هجرة، والانسحاب من المغرب الأوسط، ووضع أنماط للسيطرة عليه، باستخدام الدعاة الكتاميين والعائلات الكتامية ذات النفوذ، وذلك للابتعاد عن الصراعات القبلية، والتوجه شمالا نحو السواحل.

عقب الانتصارات على الأغالبة، استولت القوات الإسماعيلية الفاطمية على الزّاب، مما فتح الطريق أمامها إلى القيروان، وسقطت القري في أيديهم تباعا إلى غاية أريس، وسحقت جيش الأغالبة الموالي للعباسيين سنة 296هـ/ 909 م، بعد فرار زيادة الله الثالث آخر حكامهم إلى مصر، وبعدها أخضعوا الرستميين بتاهرت، والعلويين في المغربين الأوسط والأقصى.

وللوقوف على نوعية الأسوار التي كان الفاطميون يحمون بها مدنهم، تطرقنا سابقا إلى نماذج منها في مدن المغرب الأدنى وهي رقّادة والمنصورية والمهدية، وسنتطرق إلى نماذج منها في مدن المغرب الأوسط، بمدينة المحمدية (المسيلة)، فبعد أن كلف الخليفة المهدي ابنه أبو القاسم محمد بقيادة حملات انتقامية ضد قبائل مغراوة، أهمها حملة سنة 315 هـ/927 م، قرر أن يؤسس مدينة محصنة في منطقة الحضنة على أراضي بني كملان، بالقرب من مدينة زابي جوستنيانا البيزنطية، فأقام حصنه الجديد الذي سمي باسمه، المحمدية التي حملت فيما بعد اسم المسيلة، أي معقل نبلاء بني عيسي، ولتأمين ضواحي المدينة وخضوع الجماعات الريفية، تم ترحيل جزء من بني كملان إلى منطقة القيروان، وأسندت عملية تشييد وتحصين المدينة إلى علي بن حمدون بن سماك بن مسعود الأندلسي، فأقام حولها أسوار وجعل لها بابين هما: باب القاسمية وباب الأمور، وأحاطها بخندق يأتيه الماء من إحدى السواقي. وذلك لتحصين المدينة وإحكام السيطرة والمراقبة عليها.

كما أراد الفاطميون تقوية مواقع المراقبة والتحصينات الجبلية فبنو مدينة آشير، في الجبل الأخضر التابع لسلسلة جبال التيطري، جنوب مدينة الجزائر، بأمر من الخليفة الثاني القائم سنة 324 هـ/935 م، للقائد الصنهاجي زيري بن مناد، وجعلها مدينة محصنة، لأجل حماية الولايات الغربية، ومراقبة التحركات المعادية لقبائل زناتة، ولتكون معقلا لقبائل صنهاجة المتحالفة مع الفاطميين، ومواجهة تحركات الإباضية النكارية، وتقليص النفوذ الأموي في المغرب الأوسط.

3.2. الخصائص المعمارية: تميزت المدن الفاطمية ببلاد المغرب الإسلامي بعدة خصائص معمارية، شملت مواد البناء، والتحصينات، والعناصر المعمارية، والقصور المغلقة، وتجلت هذه الخصائص بقوة في مدينتي المهدية والمنصورية، بالمغرب الأدنى.

1.3.2. مواد البناء المحلية: تم استخدام حجر التلاتات في بناء سور مدينة المهدية، وهي حجارة منحوتة في هيئة متوازي مستطيلات وبقياسات معينة يحددها البناء، مما يساعد على سهولة البناء ومتانته، واستخدم كذلك في منشآت الفاطميين بالقاهرة، كمشهد الجيوشي وجامع الحاكم مما يدل على انتقال بعض التقنيات مع الفاطميين من عاصمتهم المهدية إلى القاهرة، وقد بقيت أسوار المهدية مع أجزاء من الباب قائمة، حتي تحطمت سنة 1899 م، وتذكر المصادر التاريخية أن أسوار المهدية كانت مدعمة بستة عشر برج، ثمانية منها ترجع إلى عصر إنشاء المدينة، والثمانية الأخرى ترجع إلى فترات متأخرة، وبما أن الجهة الغربية للمدينة هي أضعف جهة من ناحية التحصين الطبيعي، لأنها ترتبط بالبر، فقد تم تحصينها بقوة من خلال زيادة سمك السور وبنائه بالحجر، وتدعيمه بالروابط الرخامية.

واستخدام الروابط الرخامية في بناء الأسوار يهدف إلى منع نقبها، وذلك بوضع أعمدة من الرخام بعرض بناء السور، بحيث يبدو قطاع طرفي العمود في وجهي السور الخارجي والداخلي في هيئة قرص مستدير، كما تم استخدام الحجر الصلد في إنشاء مرسي المهدية، حيث وصفاه البكري وياقوت الحموي بأنه منقور في حجر صلد، ويتسع ثلاثين مركبا، وعلى طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة حديدية، كما استخدم الفاطميون الطين والحجارة في بناء أساسات القاهرة، وقد تكون هذه التقنية موروثة معهم من بلاد المغرب، خاصة وأنهم حديثوا الوجود بمصر.

2.3.2. التحصينات الدفاعية (الأسوار والأبواب والخنادق): كان أول ما بنى عبيد الله المهدي من مدينة المهدية هو سورها الغربي الذي فيه أبوابها، ومن ناحية سمكه فإنه يتسع لفارسين متجاورين، وهذا ما يدل على سمكه، وجرت هذه العادة في إنشاء الأسوار في المدن الكبرى

للدفاع عنها، كمدينة بغداد، لأن سمك الأسوار يساعد على منع العدو من نقبها أو ثقبها، ويساعد على الزيادة في ارتفاعها، لإعاقة تسلقها.

ويصف ابن حوقل سور المهدية، بأن له بابان ليس لهما شبيه ولا نظير، غير البابين اللذين على مدينة الرقة عملا وشكلا، وهذا ما يدل على التأثير المشرقي في صنع مصاريع الأبواب، سواء من ناحية التقنية المستخدمة أو من ناحية الشكل، ولا غرابة في ذلك لأن عبيد الله المهدي نشأ في مدينة حمص بالشام، وذكر ياقوت الحموي أن عبيد الله المهدي حصن المهدية بسور محكم وبأبواب مصمتة، وجعل في كل مصراع من الأبواب مائة قنطار، ولها بابان بأربعة مصاريع، لكل منها دهليز يسع خمسمائة فارس، ويؤكد هذا أيضا ما ذكره ابن حوقل من أن للمدينة بابين.

لقد أشارت المصادر التاريخية إلى وجود خندق خارج أسوار المهدية، ويعتبر جزءا مهما من منظومة العناصر المعمارية الدفاعية للمدينة، وأنشأ هذا الخندق في عهد الخليفة القائم ابن المهدي، حيث يشير التيجاني في حديثه عن حروب القائم بن عبيد الله المهدي مع أبي يزيد سنة 333 هـ/944 م، إلى أن القائم أمر بحفر خندق حول أرباض المهدية وزويلة، ويذكر في موضع آخر أن أبا يزيد زحف إلى المهدية فوصل خندقها واقتحم الماء بمن معه فوصل الماء إلى صدور خيولهم.

3.3.2. العناصر المعمارية (الأقواس والمداخل): لقد حدثت بعمارة المسجد الجامع بالمهدية تعديلات معمارية كثيرة، غيرت معظم وحداته وعناصره، ويشغل مساحة قدرها 82x60 م، وواجهته الشمالية تضم عناصره المعمارية الأصلية، بالإضافة إلى قطاع حديث نسبيا، يمثل واجهة الميضأة ومأذنة حديثتين، والمدخل الرئيسي بهذه الواجهة الرئيسية من النوع البارز، ويتكون من كتلتين بارزتين على الجانبين، ويربط بينهما من الأعلى عقد (قوس) من نوع حدوة الفرس، وتؤدي فتحة المدخل إلى ممر يعلوه قبو، وفي صدر الممر فتحة باب يعلوها عتب، يعلوه عقد عاتق، وتؤدي فتحة الباب المذكورة إلى داخل الجامع، ويكتنف فتحة المدخل الخارجية دخلتان يعلو كل منهما عقد حدوي.

أما المسجد الجامع من الداخل، ففتحة الباب التي بصدر ممر المدخل الرئيسي تؤدي إلى الرواق الشمالي، وهو عبارة عن سقيفة تغطيها أقبية متقاطعة، تطل على صحن الجامع ببائكة من ثلاثة عشر عقدا، أما صحن الجامع فهو مستطيل الشكل 35x50 م، يطل عليه من الجانب الغربي رواق ببائكة تتكون من تسعة عقود محمولة على دعامات.

4.3.2. القصور المغلقة (قصر الخلافة وقصر القائم بأمر الله بالمهدية): أشارت المصادر التاريخية إلى أن الخليفة عبيد الله المهدي، تابع إنشاء المنشآت الأخرى، مثلما تابع إنشاء السور والجامع وشبكة المياه، والتي من أهمها قصر الخلافة، الذي كانت به طياق من ذهب، كما تشير المصادر إلى أن ابنه القاسم بني قصره المعروف به، ويذكر ياقوت الحموي، بعض ملامح هذه القصور، فيذكر أن عبيد الله المهدي بنى بالمهدية قصورا عالية، وهذه الروايات تبين اهتمام الخلفاء الفاطميين بعمارة القصور الضخمة والفخمة، في إطار توظيف العمارة في الدعاية السياسية للدولة الفتية، مع الإشارة إلى سمة تخطيطية هامة في المهدية، هي في بناء قصرين أحدهما للخليفة والأخر لابنه وبينهما ميدان فسيح، وهو ذات التخطيط الذي تكرر في القاهرة. كما أن الخليفة الفاطمي المنصور أنشأ بمدينة المنصورية (صبرة) قصرا وانتقل إليها وجعلها مقرا لخلافته، وذلك سنة 337هـ/948 م، وظلت هذه المدينة دار ملك للفاطميين إلى أن انتقلوا إلى مصر.

المحاضرة (07): تطور العمران عند الزيريين والمرابطين والحماديين: مراحله وخصائصه.

تمهيد.

يعد التطور العمراني في الغرب الإسلامي خلال الفترة الوسيطية، انعكاسا حقيقيا للمظاهر السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، لأن تأسيس المدن وتطورها له علاقة وثيقة بصعود الدول التي قامت بالمنطقة بعد أفول وتلاشي السلطة العباسية والفاطمية، الأمر الذي أنتج نوعا مميزا من العمران بالخصوص في المغربين الأدنى والأوسط، وهذا ما سنقف عليه بالتدريج في هذه المحاضرة.

أعطني أرقام الصفحات التي تخدم المحور التالي وعناصره:

1. العمران عند الزيريين.

أسس الصنهاجيون دولتهم أواخر القرن العاشر الميلادي على يد زيري بن مناد، من كبار شخصيات قبيلة صنهاجة، وكانت في البداية تابعة للدولة الفاطمية، بقيادة المعز لدين الله الفاطمي، وتولي الزيريون حكم إفريقية، وبدأوا يعلنون استقلالهم بالتدريج، لا سيما في عهد المعز بن باديس، هذا الأخير الذي أعلن الخروج عن المذهب الشيعي، والرجوع إلى المذهب السني المالكي، الأمر الذي جعلهم يدخلون في مواجهة مفتوحة مع الفاطميين، واختار الفاطميون مبدأ الانتقام فأرسلوا قبائل بني هلال وبني سليم للزحف على بلاد المغرب الإسلامي، مما أدي في الأخير إلى سقوط الدولة الزيرية القرن الثاني عشر.

1.1. المراحل العمرانية: يمكن تلخيص المراحل التي مر بها العمران الزيري، في مرحلة التأسيس العمراني خلال القرن العاشر الميلادي، ارتبط الزيريون بالفاطميين، بما أملته عليهم الظروف السياسية والعسكرية، لذلك جعلوا من مدينة القيروان مركزهم الرئيسي، وفي المرحلة الثانية التي تمثل مرحلة الاستقلال النسبي عن الفاطميين، نقلوا ثقلهم العمراني إلى مدينة المهدية، وحصنوها خاصة وأنها تقع على ساحل البحر المتوسط وما تتعرض له من إغارات

وتهديدات، أما مرحلة التراجع فكانت بعد القرن الحادي عشر، أين فكك الزحف الهلالي بنيتهم العمرانية في المدن التي كانت تحت سيطرتهم.

لكن هذا لم يمنعهم من تأسيس عديد المدن في المغربين الأدنى والأوسط، على الرغم من صعوبة تفريد فني معماري صنهاجي خالص، حيث يتعذر فصله عن الفن الفاطمي الإفريقي، مما يفرض علينا التحدث عن فن فاطمي صنهاجي، ولإن تمتعت بعض المواقع في المغرب الأوسط، مثل أشير وقلعة بني حماد، بعزلة نسبية وبصلابة مواد البناء، وساهمت كل العوامل في هدم المعالم الصنهاجية بإفريقية بلا رجعة، مثل أعمال النهب الشاملة وهشاشة الطوب، والترميمات المتلاحقة، وإعادة استخدام الرخام والآجر في بناء المراكز العمرانية المجاورة.

ومع ذلك كان أغلب الأمراء الصنهاجيين بنائين، حيث بنى زيري وبلكين مدينة أشير وغيرها من مدن المغرب الأوسط، وشيد المنصور قصر صبرة المنصورية، وبنى المعز بن باديس قصرا في نفس تلك السنة، ورمم عدة معالم لا سيما في القيروان، وأقام حماد القلعة، وبنى الناصر بجاية، لكن الزحف الهلالي والخطر النرماني، منع بني زيري من إقامة أي معالم في المهدية.

2.1. مظاهر التطور العمراني: يمكن أن نلمس بعض مظاهر التطور العمراني عند الصنهاجيين، لكن بصفة ضئيلة نسبيا، باعتبار أن الطابع العمراني الفاطمي هو الغالب، ولا توجد استقلالية تامة للعمران الصنهاجي، ففي المدن تواصلت في المدن الصنهاجية التقاليد العمرانية الفاطمية التي كانت سائدة في مدينة القيروان، وجرت توسعات للمساجد الكبرى، وغلب على تخطيط المدن الطابع الديني العلمي، مما جعلها فضاءات مفتوحة، تم التركيز فيها على الجانب الوظيفي أكثر من غيره، بإعطاء الأولوية للجوانب العلمية والتجارية، على حساب غيرها من الجوانب الأخرى.

3.1. الخصائص العمرانية: كانت الخصائص العمرانية السائدة في العهد الصنهاجي، ذات لمسات تقليدية مشرقية عراقية بالخصوص، فتراجع الجدران في الاتجاهين الأمامي والخلفي،

وإبراز الأروقة، اقتباس عراقي، وكذلك تزيين الواجهات بمحاريب صغيرة شبه دائرية ترتفع من القاعدة وتنتهي بتقوس، وتتمثل أيضا في طريقة التسقيف الأكثر شيوعا، التي تعتمد على القبة ذات الزوايا البارزة، المتكونة من تقاطع قوسين في شكل نصف أسطواني، وهذا الطراز لم يكن مستعملا إلى غاية القرن التاسع الميلادي إلا في المواجل.

أما الإيوان الذي هو أيضا من أصل فارسي عراقي، فهو قاعة مقببة تفتح على الخارج بواسطة قوس كبير بلا واجهة، وكانت قاعات القصور موزعة حول خمسة صحون، تشبه قصور الأمويين في سوريا، كما تشبه القاعات الخمس التي اكتشفت في المنصورية، قاعات المنازل الطولونية في القاهرة القديمة، وتعد الحدائق والبساتين والأحواض والبرك من العناصر الأساسية لقصور الأمراء الصنهاجيين، والمآذن المربعة تمثل طرازين مختلفين، فمئذنة قلعة بني حماد عبارة عن برج مقسمة إلى ثلاث طبقات ومزينة ببعض الثقوب والمحاريب الصغيرة المميزة للواجهات، وصومعة جامع صفاقس بها ثلاثة بروج منضدة، تشبه الطراز القيرواني.

ومن الناحية الدفاعية لم تخبرنا المصادر عن تعزيز بنو زيري للتحصينات الفاطمية بمدينة المهدية، بعد غزوة بني هلال، أما تحصينات المدن التي بنوها في المغرب الأوسط، والمتمثلة في مدن أشير وقلعة بني حماد وبجاية، فهي تتألف من سور مبني بالحجر الخام، ومحصن بأبراج تتماشي مع شكل التضاريس، ومن خصائصها أنها تتمثل في هضبة تحيط بها الوهاد، وتستند على مرتفع صخري للرصد والمراقبة، وتمتاز أقواس الجسور الممدودة على الوهاد بالقلعة بشكلها الفارسي، وكان سكان المدن التي يهددها بنو هلال، يضطرون لإقامة تحصينات ارتجالية أو إصلاح المنشآت الدفاعية القائمة بذاتها، وهي تنم عن استمرارية في الطابع العمراني الفاطمي أكثر من كونها إبداعا خاصا بالصنهاجيين.

2. العمران عند المرابطين.

ظهرت الدولة المرابطية في القرن الحادي عشر الميلادي، كحركة إصلاحية دينية في القبائل الصنهاجية الصحراوية، بقيادة عبد الله بن ياسين، ودعمتها بعض القبائل وزعمائها كيحي بن عمر اللمتوني، ووصلت هذه الدولة إلى أوج قوتها في عهد يوسف بن تاشفين الذي

وحد بلاد المغرب الأقصى، وأسس مراكش عاصمته الأولي سنة 1070 م، ثم امتد توسعه إلى الأندلس، حيث انتصر انتصارا ساحقا في معركة الزلاقة، وتمكن من توحيد بلاد المغرب الإسلامي تحت راية دولته. وسنستعرض في هذا المحور، المراحل العمرانية، ومظاهر التطور العمراني، والخصائص المعمارية.

وتجدر الإشارة إلى غياب الأدلة المادية على العمران المبكر للمرابطين في المناطق الأولي التي مروا بها. فقد نظم المعهد الأساسي لإفريقيا السوداء (I.F.A.N) بعثتين إلى مجموعة جزر تيدرة، القريبة من رأس تيميريس في عامي 1965 و1966، وكان الهدف دراسة جوانب مختلفة لهذه الجزر، ومن بينها التحقق مما إذا كان من الممكن الوصول إليها سيرا على الأقدام، كما ذكر "روض القرطاس"، وقد أثبتت هذه البعثات أن الأمر كان ممكنا عند الجزر عند حدوث الجزر (انحسار الماء)، لكن لم يتم العثور على أي أثر للبناء في أي من الجزر، باستثناء بعض المقابر الحديثة نسبيا، وعليه، فمن غير المستبعد أن يكون بعض المرابطين قد وجدوا ملجأً هناك في الوقت الذي كان فيه ابن ياسين غير مرغوب فيه لدى معظم الصحراويين.

1.2. المراحل العمرانية: لما زحف يوسف بن تاشفين نحو المغرب وهزم مغراوة وزناتة وبني يفرن، استسلمت له معظم القبائل، وفي بضعة أشهر بسط سيطرته على المغرب الأوسط والجنوبي، وعاد إلى أغمات عام 454 هـ/1062 م، وبدأ في إنشاء مدينة مراكش. وبعد أن تنازل له ابن عمه أبو بكر بن عمر عن الإمارة، أصبح يوسف بن تاشفين أميرا للمرابطين سنة 1062 م، اتجه نحو المغرب الشمالي لانتزاعه من أيدي الزناتيين، ودخل مدينة فاس سنة 462 هـ/1069 م، فنظم المدينة وأمر بهدم الأسوار التي تفصل بين العدوتين، وجعلها مصرا واحدا، ثم أدار عليها الأسوار، وأمر ببناء المساجد فيها، ثم اتجه إلى نظامها المدني، فأعاد تخطيطها وبنى الحمامات والفنادق وأصلح الأسواق، وبقي فيها إلى غاية 463 هـ/1070 م، حيث خرج إلى بلاد ملوية واستولي على حصون بلاد طنجة، وعبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة 479 هـ/1086 م.

2.2. مظاهر التطور العمراني: يعتبر بناء مدينة مراكش وتعميرها من أولي مظاهر التطور العمراني في العهد المرابطي، ففي عام 454 هـ/1062 م، اشتري الأمير يوسف بن تاشفين مكان إقامة المدينة من عجوز مصمودية، حيث يقع على بعد ستة كلم إلى الشمال من وادي تنسفت، وإلى شرقه يجري فرع من فروع وادي أسيل، يحده شمالا مملكة سلا وجنوبا جبل درن وغربا المحيط الأطلسي وشرقا مناطق سجلماسة وفاس، ويبعد عن أغمات خمسة عشر ميلا إلى شمالها الغربي وهو سهل يحيط به مرتفعان هما أجليز وكدية، وقد كان مكمنا للصوص الذين يغيرون على القوافل، فكان المارة إذا وصلوا إلى هذا المكان قالوا باللهجة البربرية: مراكش أي أمشي مسرعا ومن هنا جاءت كلمة مراكش.

وفي البداية نزل الأمير يوسف بن تاشفين بخيام الشعر وشرع في بناء المسجد، وهي الطريقة المتبعة في بناء المدن الإسلامية، وشارك العمال عملية البناء وهذا ما يدل على تواضعه، وبعد ذلك بنى قصبة صغيرة لحفظ أمواله وسلاحه، في المكان المعروف الآن بسور الحجر قرب جامع الكتبيين ويعرف اليوم بالسجينة، وبناء مدينة مراكش للمحافظة على الأصالة الصحراوية وفي منطقة الأعداء، يبدو أن غرضه منع اختلاط أصحابه ذوو الطابع البدوي بالسكان الحضر المحليين الذين يختلفون عنهم في العادات والتقاليد، لأن الحياة في الحضر مغايرة لطبيعة الصحراء، فعلي سبيل المثال أهل الحضر كأغمات يتناولون المياه من شبكات الري والقنوات، ومراكش كانت شبيهة بالمعسكرات التي أنشأها العرب في البلاد المفتوحة، وتحولت فيما بعد إلى حواضر كالبصرة والكوفة وواسط في العراق، والفسطاط في مصر، والقيروان في تونس، ولم يشيد لها الأمير يوسف بن تاشفين سورا، نظرا لقوة الدولة وهبة أعدائها منها، وبقيت بلا سور حتي أقامه الأمير على خليفة يوسف بن تاشفين سنة 527 هـ/1133م.

وجلب يوسف بن تاشفين المياه لمراكش من أغمات وأمر بحفر الآبار، ولعب الجبل المجاور لها دورا كبيرا في تلطيف مناخها وتخزين المياه الجوفية فيها، لأن الثلوج تغطيه مدة ستة أشهر في السنة، وفي أوائل القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي زارها ابن بطوطة، ووصفها بأنها أجمل المدن، فسيحة الأرجاء متسعة الأقطار كثيرة الخيرات، بها المساجد

الضخمة كمسجدها المعروف بمسجد الكتبيين وبها الصومعة العجيبة، وبالإضافة إلى بناء المساجد، فقد أعاد الأمير يوسف بن تاشفين بناء جامع مدينة الجزائر، وزاد من حجم جامع مدينة سبتة.

كما خلف المرابطون شواهد معمارية ظلت دالة على تطورهم العمراني وسمو حضارتهم، نذكر منها:

جامعة القرويين: يعتبر من أشهر المساجد الجامعة في بلاد المغرب لكونه جامعة إسلامية عريقة، كانت تقارع الأزهر الشريف في العلم وتخرج الدعاة والعلماء والفقهاء، وقد مر بثلاث مراحل: الأولي عند تأسيسه سنة 254 هـ/859 م، والثانية عند الزيادة سنة 345 هـ/956 م، والثالثة عندما زيدت مساحته في عهد علي بن يوسف سنة 530 هـ/1135 م، وتذكر كتب التاريخ أن منبر جامع القرويين من أحمل منابر الإسلام.

المسجد الجامع بتلمسان: تم إنشاء هذا المسجد سنة 530 هـ في إمارة علي بن يوسف، وكانت هندسته المعمارية في غاية الروعة والجمال ودقة الإتقان، فيها لمسات أندلسية وفنون معمارية قرطبية، بل يري فيه البعض تقليدا مباشرا لجامع قرطبة في لوحتي الرخام اللتين تكسوان واجهة المحراب، وكذلك سقفه الخشبي شبيه بسطح مسجد قرطبة، وكذلك البلاط، مما يدل على انصهار دولة المرابطين في حضارة المغاربة والأندلسيين والأفارقة.

أما العمران الدفاعي العسكري فكان للمرابطين باع طويل فيه، ومن أبرز آثارهم نجد أسوار مراكش، حيث بدأ الأمير علي بن يوسف في بناء سور المدينة سنة 520 هـ وكمل بناء السور سنة 522 هـ، كما انتشرت فكرة بناء الأسوار في الأندلس وفرضت الدولة على رعاياها ضريبة تنفق على هذا الهدف الاستراتيجي الدفاعي، ومن أشهر الأسوار التي بنيت أو أعيد ترميمها في الأندلس، أسوار مدينة المرية وأسوار مدينة قرطبة التي تمتاز بأبراجها الضخمة المتقاربة، وأسوار مدينة إشبيليا من جهة نهر الوادي الكبير، وبنى المرابطون في المناطق الوعرة حصونا بالحجر لكي تصمد في وجه الحصار لمدة طويلة.

وكان عدد جنود الحصون والقلاع ما يعادل مائتي فارس وخمسمائة راكب في كل حصن، ومن أشهر قلاع المرابطين في الأندلس قلعة منتقوط التي تقع على بساتين مدينة مرسية.

وبلغت العمارة العسكرية المرابطية ذروة تطورها، حيث مثلت سابقة مهمة للإصلاحات الكبيرة في فنون التحصين (poliorcetics) التي طبقها الموحدون لاحقا، ويرتبط تطورها بالجوهر الأساسي لتلك الحركة التي استندت منذ نشأتها إلى التوسع الإقليمي.

ومن أبرز النماذج نجد قلعة القليعة (El Castillejo) في أبروكينا، التي تتميز بأبراج رباعية الأضلاع ومصمتة من الداخل؛ وتعتبر هذه الأنواع من الأبراج الضخمة والمصمتة هي السمة الأكثر تميزا للمنشآت العسكرية المرابطية الأساسي لتلك الحركة التي استندت منذ نشأتها إلى التوسع الإقليم وبالمثل، تظهر قلعة باقرس (The Castle of Bacares) كحصن يتكون من غلاف غير منتظم يتكيف مع تضاريس الأرض ويضم أبراجاً مربعة، وهو النموذج المعماري الذي كان شائعاً جداً في المنشآت العسكرية خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر.

ومن أشهر قلاعهم في المغرب قلعة تاسغيموت على بعد ثلاثة كيلومترات جنوب شرق مراكش وعلى بعد نحو عشرة كيلومترات شرق أغمات، وبالنظر إلى قلاع وحصون المرابطين، نجد أن فن العمارة في زمانهم تأثر بفن العمارة الأندلسي.

إذن فعمران المرابطين يظهر التدرج من حياة بدوية صحراوية إلى تأسيس دولة قوية عسكريا، وخلال القرن الحادي عشر انتقل من الطابع الصحراوي البسيط، ثم توسع بعد ذلك تماشيا مع الظروف الجديدة، وكانت مراكش نقطة تحول في هذا المسار، باعتبارها مركز إشعاع حضاري وعاصمة سياسية للمرابطين، وبدأت تتطور المدن الأخرى وتتجلي فيها المظاهر العمرانية المتنوعة، كتشييد المساجد مثل مسجد الكتبية، والأسوار المنيعة، والقصور، وتقسيم المجال العمراني للمدينة إلى أسواق وأحياء سكنية، وجمع هذا العمران بين مهامه الدفاعية والمهام الاقتصادية حيث ربط تجاريا بين الشمال والصحراء، وقد حافظ العمران

المرابطي سواء في بلاد المغرب أو الأندلس على خصائصه الدفاعية، واستخدام مواد بناء محلية كالطين المدكوك، وتقنيات بناء محلية تطبعها البساطة، عكست الطابع الإصلاحي العام للدولة بصفة عامة.

3. العمران عند الحماديين.

تأسست الدولة الحمادية على يد حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي سنة 1007 م، بعد أن استقل عن الدولة الصنهاجية، وجعل من مدينة قلعة بني حماد عاصمة التي تقع في منطقة جبلية بالمعاضيد شمال شرق مدينة المسيلة عاصمة لدولته، وبلغت هذه الدولة أزهي عصرها في عهد الأمير الناصر بن علناس، حيث ازدرت من الناحية العمرانية والتجارية، بعد انتقال العاصمة إلى بجاية، ذاع صيتها من جميع النواحي، وعرفت تطورا ملحوظا في العمران والفنون المعمارية، إلى أن وصلت إلى مرحلة الضعف والتقهقر بسبب ما أصابها من صراعات داخلية، وزحف القبائل الهلالية نحوها، إلى أن سقطت منتصف القرن الثاني عشر الميلادي علي يد الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي.

1.3. المرحلة العمرانية: بعد الانتصارات التي حققها حماد على خصومه من أبناء عمومته الزيريين، وبعد انتصاره على العز بن زيري بن عطية، ولي حماد على المغرب الأوسط، وفي سنة 398هـ/1007م، أذن له باديس بتأسيس قلعة بني حماد، على بعد 36 كلم شمالي شرقي المسيلة، في مكان حصين بجبل عجيسة المعروف حاليا بجبل المعاضيد، وحسب ابن خلدون فإن حماد عمر القلعة بأهل المسيلة وبأهل حمزة (البويرة حاليا) وخربها، ونقل إليها قبيلة جراوة من المغرب الأقصى، ووجود حماد بالقلعة كان يسمح له بمراقبة القبائل الزناتية، كما كان يزور مدينة أشير من حين إلى آخر، وهو بذلك أصبح يمتلك مدينتين حصينتين في المغرب الأوسط.

وتطورت القلعة من الناحية العمرانية، واتسعت حدود الدولة الحمادية، فمنذ تأسيسها على يد حماد وإلى غاية وفاة الأمير محسن بن القائد، كانت تشتمل على مدن: قلعة بني حماد والمسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت ومرسي الدجاج وبلاد زواوة ومقرة ودكامة وبلزمة وسوق

حمزة، وخضعت مدينة فاس في عهد الأمير بلكين بن محمد للدولة الحمادية، وتوسعت أيام الناصر بن علناس، حيث شهدت تأسيس مدينة بجاية، وإدخال عدد كبير من مدن المغربين الأوسط والأدنى تحت سلطة الحماديين، وهي: مليانة ونقاوس وقسنطينة والجزائر وبسكرة وصفاقس وقسطيلية وتونس والقيروان.

2.3. مظاهر التطور العمراني: ومن مظاهر التطور العمراني في الدولة الحمادية، هي الأسوار التي كانت تحيط بمدنهم، وكانت من حجر في كل من القلعة وأشير وقسنطينة وميلة وباغاية وتيغس وبلزمة ونقاوس وتبسة وبجاية، ومن الآجر بمجانة وطبنة، ويخبرنا صاحب كتاب الاستبصار بأنه بجاية "كان على المدينة سور عظيم يضرب فيه البحر"، ومازال هذا السور إلى أيامنا هذه، مبني بالحجر ومن الآجر وعرضه بين 1.7 م و2.5 م.

وكان لمدينتي باغاية والمسيلة سوران، وفي بعض المدن كبسكرة وطولقة وبطيوس، كانت الأسوار مطوقة بخنادق، وفي المسيلة كان الماء يجري بين السورين، ومن الظواهر العمرانية في الدولة الحمادية، نجد مدينتين أو ثلاث مدن مبنية في مكان واحد، فكانت بونة تحتوي على مدينتين هما: سبوس التي سميت فيما بعد مدينة زاوي، وبونة الحديثة، وكانت باديس تشتمل على مدينتين، وطولقة على ثلاث مدن.

ومع ازدياد عدد السكان في المدن بدأت تنشأ مناطق سكنية خارج أسوارها، تسمي بالأرباض، يسكنها عامة الناس والحرفيون، وتحتوي عادة على ورشات وأسواق فرعية، وكانت هذه الأرباض موجودة في بعض المدن الحمادية، مثل باغاية وطبنة وتهوده وبلزمة وميلة وبسكرة، ويذكر البكري أن على أرباض باغاية سور وبه أسواق، ولكن على قول الإدريسي أصبحت أسواق المدينة والأرباض خالية بإفساد العرب، وكان لربض ميلة حمامات، وكان حول بسكرة أرباض خارجة عن الخندق.

وكانت المقابر تقع في غالب الأحيان خارج المدن، فببجاية كانت توجد قرب الأبواب الرئيسية، أي باب أمسيون وباب المرسي وباب البنود، وبالقلعة تقع جنوبي المدينة، وببسكرة قرب باب المقبرة وبطبنة شرقي المدينة أما المصلوات فتوجد خارج مدينتي الجزائر وطبنة.

واختلف عدد أبواب الأسوار حسب المدن، فكان لبجاية سبعة أبواب: باب البحر وباب تاطنت وباب أمسيون وباب المرسي وباب اللوزة وباب البنود، ولم يبق منها إلا باب البحر، وكان لمدينتي تنس وطبنة خمسة أبواب، وكان لمدينة تاهرت أربعة أبواب: باب الصبا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن، وكان لقلعة بني حماد ثلاثة أبواب: باب الأقواس وباب الجنان وباب جراوة.

وكان بالمدن الحمادية مساجدا وحمامات وفنادق وقصورا، ومن المدن التي ذكرت مساجدها في كتب المؤرخين، نجد: قلعة بني حماد وبجاية والجزائر وملالة وقسنطينة وتنس وتاهرت وأشير ومجانة وتيجس وباديس وبسكرة وتاهودة وطبنة وميلة والغدير وماما، وكانت الحمامات موجودة في ببجاية وقلعة بني حماد وباغاية ومجانة وتيجس وبسكرة والمسيلة وسبوس وميلة، وكانت المدن الحمادية تستهلك مياه العيون والجباب والصهاريج والآبار والجداول، فكان بأشير ثلاث عيون، هي عين مسعود وعين سليمان وعين تلانتيراغ، بالقلعة عين تسمي عين السلام، وتوجد بالقرب من بجاية عين تسمي عين الأوقات.

3.3. الخصائص العمرانية: تميز العمران الحمادي بطابعه الدفاعي الذي يعتمد على اختيار الأماكن والمواقع الجبلية الحصينة كما في قلعة بني حماد، وإحاطة المدن بالأسوار والأبراج والخنادق العميقة، وتم استخدام مواد بناء محلية ركزت على الحجارة المصقولة بالدرجة الأولي، والآجر المحروق، أما القصور الحمادية فتعتبر من اشهر القصور المعروفة في العمارة الإسلامية وأكثرها أصالة، ففي قلعة بني حماد وحدها توجد سلسلة من القصور، وهي قصر المنار وقصر البحر وقصر السلام، وتميزت بجمعها بين المتانة والحصانة والجمال الزخرفي والوظيفة الدفاعية.

المحاضرة (08): تطور العمران عند الموحدين: مراحله وخصائصه.

تمهيد.

يعتبر العمران في عهد الموحدين، أداة لتوطيد الدعوة وتنظيم المدن، ولم يكن مجرد بناء يركز على النواحي المادية فحسب، وقد ساير المراحل التي مرت بها هذه الدولة، من مرحلة التأسيس إلى مرحلة التوسع والازدهار، وارتبط بالأبعاد السياسية والدينية، وعكس بوضوح التحولات التي عرفتها بلاد المغرب والأندلس في الفترة الوسيطة، حيث تميز بخصائص مغربية أصيلة على الرغم من تأثره بالطابع الأندلسي، لذلك فدراسته تمثل مدخلا هاما لاستيعاب طبيعة هذه الدولة وإنجازاتها الحضارية على كل المستويات.

1. المراحل العمرانية.

لقد عرف العمران الموحدي عدة مراحل، ابتداء من مرحلة التأسيس التي عرفت ظهور النواة العمرانية الأولي للموحدين، واستغلال العمران في توطيد الدعوة الموحدية، ومرحلة التوسع والازدهار التي تم خلالها الاستيلاء على الحواضر المرابطية الكبرى كمراكش وإشبيليا، وإطلاق المشاريع العمرانية من مدن مساجد وقصور، وإنتاج تقنيات معمارية مغربية أصيلة.

1.1. مرحلة التأسيس: تنقل محمد ابن تومرت بين مدن المغرب الإسلامي مثل بجاية وملالة وتلمسان وفاس ومكناس ومراكش وأغمات وسعيدة وهنتاتة وإيكلين من بلاد مزغنة والتي أسس بها رابطة للعبادة والتف حوله الطلبة والقبائل فعلمهم التوحيد، وبوشاية من قاضي مراكش مالك بن وهيب، بعث ورائه الأمير المرابطي علي بن يوسف مجموعة من الفرسان لمطاردته، لكنه بويع من طرف المصامدة في شهر رمضان، وأول من بايعه أصحابه العشرة تحت شجرة الخروب، ومن بينهم عبد المؤمن بن علي، ثم وجهاء هنتاتة، وجمع من قبيلة هرغة، ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي، وقبل ذلك كان لقبه الإمام، وبعد بيعته بثلاث سنين انتقل إلى جبل تينمل، في سنة 515 هـ/1121 م، فاستوطن به وبنى داره ومسجده حوالي وادي نفيس، وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتي التحقوا به، وعليه يمكن القول أن تأسيس الدولة بدأ مع الحركة الدعوية لمحمد بن تومرت، وقيامها فعليا من الناحية السياسية كان بعد وفاته،

وتولي عبد المؤمن بن علي الحكم، ولا سيما بعد الاستيلاء على مدينة مراكش سنة 541 هـ/1147 م.

1.1.1. تينمل النواة العمرانية الأولي للموحدين: تعتبر تينمل النواة العمرانية الأولي التي بنى بها محمد بن تومرت داره ومسجده، على غرار ما سري في تأسيس المدن الإسلامية، وذلك كي تكون نموذجا دينيا وسياسيا لدولته الوليدة، ومن هذه القرية الجبلية بدأت مواجهة المرابطين عسكريا وسياسيا لتقويض أركان حكمهم.

2.1.1. استغلال العمران في توطيد الدعوة الموحدية: لقد أدي اهتمام الأمراء الموحدون بالعلم إلى كثرة المساجد، وذلك راجع لتأثرهم بالحضارة الأندلسية، لأن العلاقة بين الموحدين والأندلس توثقت كثيرا، وتجلت في مجال العمران خصوصا بناء الحصون والقلاع والمساجد، والتي لازالت معالمها ماثلة للعيان إلى غاية اليوم، في مراكش وتلمسان وغيرها، وظهرت مدرسة موحدية في فن العمارة والزخرفة، تعتمد على التبسيط من التكوينات الزخرفية وتجريد التوريقات من عناصرها الحية، وإضفاء طابع الورع عليها تجسيدا لنهجهم الإصلاحي، وكانت المساجد بمثابة مدارس تعليمية تشرح مبادئ الدولة وأهدافها، واهتم الأمير أبو يعقوب يوسف بطلبة العلم حتي أنه خولهم الرجوع إليه دون المرور بالحاجب، مما ساعد على انتشار العلم بين فئات المجتمع.

2.1. مرحلة التوسع والازدهار: لقد كانت بلاد المغرب الإسلامي والأندلس خلال هذه الفترة تعيشان وضعا حرجا بسبب الحروب الصليبية التي كانت تهدف إلى إزالة النفوذ الإسلامي، لكن عبد المؤمن بن علي الذي خلف محمد بن تومرت استطاع أن يوسع دولته ويضم بلدان المغرب الإسلامي إليها، وأن يقهر الصليبيين في الأندلس ويطهر شمال إفريقيا منهم، فقد زحف علي مدن المغربين الأقصى والأوسط، فبعد مقتل تاشفين استولي الموحدون على وهران، وحاصروا تلمسان نحو سبعة أشهر، ولما استعصت عليهم تركوا حصارها لإبراهيم بن جامع، الذي أجهز على المقاومة المرابطية بها، وهكذا تساقطت بقية الحواضر المرابطية الكبرى كفاس ومراكش وغيرها في أيديهم.

1.2.1. الاستيلاء على الحواضر الكبرى (مراكش وإشبيليا): واصل الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي زحفه نحو المدن المرابطية، فاتجه إلى مدينة مراكش سنة 541 هـ/1146 م، وأقام قبته الحمراء رمز القيادة فوق جبل إيجليز المطل على مراكش، وأمر ببناء مسجد وصومعة عالية ليراقب منها الأعمال الحربية، وكان على رأس مراكش آنذاك صبي مرابطي لا يتجاوز سنه السادسة عشرة وهو السلطان أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين، لكن عبد المؤمن بن علي هزمهم وغنم نحو ثلاثة آلاف من خيولهم، بعد معارك وحصار دام حوالي تسعة أشهر، أما السلطان الصغير إبراهيم بن تاشفين فلجأ وخاصته إلى القصبة الداخلية المعروفة بقصر الحجر، وظل يقاوم حتي قبض عليه الموحدون، واقتيد إلى محلة عبد المؤمن بجبل إيجليز ، فقتل هناك، وهكذا زالت دولة المرابطين بعد أن أعلت كلمة الإسلام بالأندلس، وأنشأت دولة كبري بالمغربين الأقصى والأوسط. وأصبحت مراكش في عهد الموحدين مركزا للقيادة وحاضرة للإشعاع العلمي والثقافي.

أما في الأندلس فكان من نتائج الصراع المرابطي الموحدي، أن ثارت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ضد الحكم المرابطي، وبتشجيع من النصارى الذين كانوا ضد الحكم الإسلامي بصفة عامة، من أجل إعادة حكم الطوائف، وذلك قبل أن يتمكن الموحدون من إعادة الحكم المغربي إلى الأندلس، في صورة جديدة أشد قسوة وضراوة على النصارى بصفة خاصة، لكن عبد المؤمن بن علي أخذ على نفسه إسقاط المرابطين بالمغربين الأقصى والأوسط والأندلس، ومحاربة الصليبيين في الأندلس والساحل الإفريقي.

وجهز عبد المؤمن حملة بقيادة بزاز بن محمد المسوفي إلى الأندلس، فعبرت جبل طارق سنة 541 هـ، فاستولت على جزيرة طريف والجزيرة الخضراء دون مقاومة، ثم تلتها حملات أخري، استولوا من خلالها على عديد المدن، وبهذا خضع غربي الأندلس للموحدين ماعدا مدينة إشبيليا عاصمة الغرب، لكنها سقطت أيضا في أيديهم بعد حصارها سنة 541هـ، وبذلك استولوا على جل الحواضر الكبرى ومنها مراكش وإشبيليا.

2.2.1. المشاريع العمرانية (مساجد وأسوار وقصور ومدن): يمكن إيجاز بعض المشاريع العمرانية الكبرى في عهد الموحدين، ومنها مسجد صومعة الطوب بمراكش الذي دخله ومكث به محمد ابن تومرت، وجامع علي بن يوسف، من خلال قيام الخليفة يعقوب المنصور بإتمام صومعة جامع إشبيليا الأعظم 595 هـ، ويصف المقري في كتابه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حيث تحدث عن قصور إشبيليا وغرناطة، ووصف قرطبة ومساجدها ومبانيها ومدينة الزهراء وقصرها ومسجدها.

1.2.2.1. إنشاء مدينة تازا: كانت تازا أول مدينة أنشأها عبد المؤمن بن علي، سنة 527 هـ، وأنشأ بها رباطا لجيشه، وشيد بها مسجدا وأقام حولها سورا سنة 529 هـ، وأصبح رباطها حاميا لحدود المغرب الأقصى من الشرق وحاميا للجزائر وإفريقية، وبهذا أخذت تازا مكانة تينمل من الناحية العسكرية، واقتصر دور تينمل على حماية جنوب المغرب.

2.2.2.1. إنشاء مدينة الرباط: كانت الرباط من المدن الكبرى التي أنشأها عبد المؤمن بن علي، رغبة منه في إقامة معسكر ضخم قريب من شمال المغرب، يستطيع إنجاد الأندلس بسرعة عندما تقتضي الحاجة إلى ذلك، ووقع اختياره على مدينة سلا لينشأ بها رباطه، فأقام قصبة الأودية على مرتفع صخري بين منحنيات المحيط الأطلسي، وأنشأ داخل القصبة مسجدا وقصرا ومدرسة، وشيد بجانبها رباطا واسعا سماه رباط الفتح وأسكنه جنده، وجلب إليها الماء العذب من عيون غيولة التي تبعد عنها بحوالي عشرين ميلا، وسمح للسكان ببناء الدور والقصور بجانب الأودية ورباطها، وأدار على الرباط ومنشآت الأودية سورا. وكان لابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، وحفيده الخليفة يعقوب المنصور، منشآت تكميلية بمدينة الرباط، ففي سنة 566 هـ أمر يوسف بن عبد المؤمن بإنشاء صهريج يمد المدينة بالماء، وأقام جسرا متينا بين سلا والرباط، بجانب الجسر الذي كان قد أنشأه أبوه، وأمر بتكميل سور الرباط، لكنه لم يكتمل إلا في عهد الخليفة الثالث يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، الذي أكمل معالم مدينة الرباط، وبنى بها مسجده الكبير، والصومعة العظيمة المسماة صومعة حسان، لذلك يخطئ الكثيرون في إنساب الرباط إلى الخليفة يعقوب المنصور.

3.2.1. إنتاج تقنيات معمارية مغربية: كانت فترة الموحدين نقطة انطلاق الحضارة المغربية الأصيلة، وظهور الثقافة القومية المصطبغة بالطابع المغربي الأصيل، بعدما كانت قبلهم يغلب عليها الطابع المشرقي والأندلسي، لأن فترة حكم الخليفة المرابطي يوسف بن تاشفين من 453 هـ إلى 500 هـ، وبعد انتصاره في معركة الزلاقة سنة 479 هـ، على نصاري الأندلس، وبطشه بملوك الطوائف، صار الأندلس تابعا في الحكم لبلاد المغرب، فاستقدم يوسف بن تاشفين مشاهير العلماء والأدباء وأهل الفن من الأندلس. حيث تأثر العمران المرابطي بالأسلوب الأندلسي المعروف آنذاك.

2. مظاهر التطور العمراني.

يتجلي التطور العمراني الموحدي، من خلال التخطيط، وتشييد المنشآت المعمارية الكبرى، مثل المدن والقصبات والقلاع والحصون والطرقات والأسوار والخنادق، والمساجد والقصور، والمرافق العامة كالأسواق والحمامات وغيرها.

1.2. التخطيط العمراني: يظهر التخطيط العمراني الموحدي في تنظيم المدن وفق وظائف دينية وإدارية واقتصادية، وإنشاء شبكة طرق وأسواق مركزية وفرعية، وابتكار ميزة الفصل بين المجالات العمرانية كالمدن والقصبات والضواحي أو الأرباض.

1.1.2. تنظيم المدن حسب الوظائف: لقد جري تنظيم المدن حسب الوظائف الدينية والسياسية والعسكرية والإدارية للدولة، فروعي في بنائها بعض الشروط المتعارف عليها، كالهواء الطيب والسلامة من الأمراض، وتوفير الماء كأن تكون المدينة على نهر أو بالقرب من عيون عذبة، وتوفر المراعي للحيوانات التي يحتاجونها للركوب، أو الدواجن والحيوانات الأخرى للإنتاج. ومن الأمثلة على تنظيم المدن في العهد الموحدي نجد مدينة مراكش، فبعد قيام الدولة الموحدية اتخذها الموحدون عاصمة لهم، فأمر عبد المؤمن بن علي ببناء الدور السكنية والقصور بها، وفي عهد الخليفة يعقوب بن يوسف سنة 593هـ/1196م، أمر ببناء القصبة والصومعة ومنارة الكتبيين والقصور والصوامع.

وازدهر النشاط العمراني في العهد الموحدي في بناء المدن، فقد بنيت الرباط في عهد الخليفة الناصر الموحدي سنة 568 هـ/1172 م، ومن أجل إعمارها أوصلوا الماء إليها وأنشأوا بها سقاية يشرب منها الناس والخيل، وتسقي منها الأرض، وفي عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي بنيت أيضا قصبة الوادي، وقصبة على فم البحر الداخل إلى مدينة سلا، وصنعت سقاية لشرب الناس، وبنوا بها الدور السكنية والأسواق، وصهاريج لجمع المياه، يشرب منها العساكر والناس والمواشي ويسقي منها الزرع، وتم جلب الماء إلى قصبة المهدية من أماكن بعيدة، وفي سنة 604 هـ/1207 م، أمر الأمير محمد الناصر بن يعقوب ببناء مدينة وجدة في بلاد الريف.

2.1.2. شق الطرق وبناء القناطر والأسواق: لقد وجدت شبكة من الطرق تربط بين مدن المغرب الأقصى، فكانت شوارع مراكش قاعدة لهذه الشبكة، وحرص الخلفاء الموحدون على مد الطرق المعبدة الآمنة لنقل السلع والبضائع، وخططت المدن لتتناسب مع وسائل النقل البري، فكانت شوارع مدينة مراكش واسعة، وشوارع مدينة فاس منتظمة، ولكنها ضيقة لا تسمح إلا بمرور دابتين محملتين، ومن أشهر هذه الطرق البرية، طريق يبدأ من مراكش حتى فاس، ويمتد إلى سبتة على ساحل البحر المتوسط، وطريق بري آخر من مراكش إلى سلا، وطريق من أغمات إلى تادلة، وطريق من مراكش إلى فضالة، وطريق من مراكش إلى أسفي على ساحل المحيط الأطلسي. كما أنشأوا القناطر والتي هي جسور من الآجر والحجارة على الحواجز المائية، يعبر عليها الناس، والعساكر والدواب أثناء الحملات العسكرية.

كانت أكثر الأسواق الموحدية ازدهارا بالمغرب الأقصى، تلك التي تقام قريبة من المساجد، حيث يزدحم الناس وتكثر حركة البيع والشراء، ويتوفر بها ما يحتاجه رواد المساجد، مثل سوق الشماعين، وسوق العطارين، وسوق القباقيبية لوجوب الوضوء، وسوق الكتبيين، ويظهر ذلك بوضوح في أسواق مدينة فاس، أما الأسواق التي تسبب الأضرار، كالروائح الكريهة والأدخنة وأخطار الحرائق والأصوات المزعجة، فكانت تقام عند أسوار المدينة، ومنها سوق الدباغين والصباغين والسراجين والحدادين والنجارين. وكانت هناك عدة أنواع من الأسواق

الدورية والدائمة وأسواق الجملة، فكانت الأسواق الدائمة تقام داخل المدن، في مكان محدد حسب البضاعة التي تباع فيه، مثل مراكش التي بها أسواق لبيع السكر والقطن، وأسواق لبيع الماشية والألبان، وأسواق لبيع الحبوب والخضر والفواكه والمحاصيل الأخرى التي ترد من مدينة نفيس وبلاد دكالة الواقعة شمال غرب مراكش، وأقيم سوق الدباغين بجوار باب الدباغين.

3.1.2. الفصل بين المجالات العمرانية: في هذا العنصر يمكن الإشارة إلى بعض الأمثلة العمرانية التي سبق التطرق إليها، لتوضيح الفصل بين المجالات العمرانية، والتي كان الهدف منه أساسا هو حسن تسيير المرافق المعمارية وتخصصها، والتحكم الإداري والعسكري لفرض الأمن، فقصبة مراكش المحصنة التي بناها المرابطون لتكون مقرا لحكمهم داخل المدينة، واستغلها الموحدون فيما بعد، جاءت مميزة من الناحية المعمارية التي روعي فيها الجانب الدفاعي، وحتى من حيث موقعها المنفصل عن بقية أحياء المدينة ومرافقها.

وكذلك قصبة مدينة غرناطة بالأندلس التي تقع في مكان مرتفع يشرف عن المدينة بأكملها، مما يدل على مبدأ الفصل الجغرافي بينها كمجال عمراني خاص بالحكام، والمجال العمراني العام الذي تمثله بقية أجزاء وأحياء ومرافق مدينة غرناطة.

2.2. المنشآت المعمارية الكبرى: وتشمل بناء المساجد الجامعة مثل الكتبية بمراكش، والجامع الكبير بإشبيليا، والقصور سواء ببلاد المغرب أو بالأندس.

1.2.2. الجوامع: عرفت العمارة الموحدية تشييد المساجد والجوامع الكبرى في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس، ولعل أشهرها، هي: جامع الكتبية بمراكش، وجامع الخيرالدا بإشبيليا.

1.1.2.2. جامع الكتبية: تم تشييده حوالي 1147 م، بعد دخول الموحدين مدينة مراكش، ليحل محل جامع بن يوسف المرابطي، فقرر عبد المؤمن بن علي هدم المرابطي القديم وبناء جامع الكتبية في موقع قريب، وتصحيح اتجاه القبلة.

ويشير اسم الكتبية إلى كل من المسجد ومئذنته، بُني المسجد في عهد المرابطين، لكن عبد المؤمن هدمه وأعاد بناءه عند استيلائه على المدينة، ليكون رمزاً لوصول حاكم جديد قوي

وأكثر ورعاً، ولتصحيح اتجاه القبلة نحو مك، ويعود أصل التسمية إلى الكلمة العربية "كتاب"، حيث ترمز لسوق كتب يحيط بالمسجد، يجتمع فيه مئات الكتبيين لبيع أو تبادل المخطوطات النادرة القادمة من مختلف بقاع العالم، وبينما تأسس المسجد من قبل عبد المؤمن في عام 1147 وأعيد بناؤه في عام 1158، لم يكتمل بناء المئذنة حتى عام 1195 م، في عهد حفيده، الخليفة الثالث المنصور، وتعتبر مئذنتة بداية الطراز المعماري الموحدي بامتياز، حيث تعرض ترتيبا فنيا للأشكال الموزعة على الجوانب المختلفة للمئذنة المربعة، وتتوج مجموعات النوافذ ذات الأقواس المتعددة الفصوص بإفريز من الفسيفساء المصنوع من زخارف بيضاء وخضراء ترمز إلى السلام والعقيدة الإسلامية، بينما تشكل قبة مصغرة بها كرات ذهبية اللمسة النهائية للمئذنة بأكملها.

ويعتبر جامع الكتبية تحفة معمارية تجمع بين الفخامة والبساطة، ويتميز بالزخارف الدقيقة والتناسق الهندسي، ويبلغ ارتفاع مئذنته المربعة حوالي 77 م، وتعتبر من أجمل المآذن في العالم الإسلامي، وتأثر بتصميمها المربع مآذن أخري كمئذنة برج حسان بالرباط، ومئذنة الخيرالدا في إشبيليا، وتتكون قاعة الصلاة فيه من 17 رواقا متوازيا، مدعومة بأعمدة رخامية، وسقفه مزخرف بنقوش جصية، وتتسع لألاف المصلين مما يبرز طموح الموحدين لبناء المنشات الضخمة، ويحيط بالمسجد صحن واسع مع نافورة مركزية للوضوء، واستخدم في بنائه الحجر الرملي، والرخام في الأعمدة، والزخارف الجصية في الأقواس والأسقف، مما جعله يبدو أنيقا ومتينا.

2.1.2.2. الجامع الكبير والصومعة (الخيرالدا) بإشبيليا: بدأ بنائها في عهد الخليفة أبو يعقوب يوسف، على يد واليه أبي داود يلول بن جلداسن، في القرن الثاني عشر الميلاد، وتعطل بوفاتهما حوالي 580 هـ/1184 م، إلا أن خليفته أبا يوسف يعقوب المنصور، أمر والي إشبيليا بإتمام مشروع أبيه وإكمال بناء المئذنة، تجاوز في ارتفاعها مئذنة جامع قرطبة التي كانت وقتئذ تعتبر أعظم مئذنة في بلاد المغرب والأندلس، وأسندت عملية البناء إلى عريف العرفاء أحمد بن باسة، ولكنه توفي، فخلفه علي الغماري، فتم بنيانها بعد انتصار أبي

يوسف يعقوب على جيوش قشتالة، في موقعة الأرك، في رجب سنة 591 هـ/يوليو 1195م، وبعد عودته إلى إشبيليا في 27 من شعبان، أمر بإكمال بناء الجامع الكبير والصومعة، فأصبحت تشرف على فحص إشبيليا وما يحيط بها في منطقة الشرف، ثم أمر الخليفة المنصور بصنع التفاحات الأربع المذهبة لتوضع فوق الصومعة، فرفعت في حضرته وركبت بالسفود البارز، وأزيحت عنها الأغطية في 19 ربيع الآخر سنة 592 م، فبهر ببريقها الحاضرين.

وعندما سقطت إشبيليا في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة، حولوا الجامع إلى كنيسة سانتا ماريا، والصومعة إلى برج للنواقيس، وفقدت تفافيحها الأربعة المذهبة، على إثر زلزال حدث سنة 1355 م، وفي سنة 1494 م، تهاوي القسم العلوي من الصومعة بسبب صاعقة ضربته، وسقط جزء كبير من البرج إثر زلزال سنة 1504 م، وعندئذ قام المهندس المعماري هرنان رويث ببناء برج علوي سنة 1558 م، تم بعد عشر سنوات، ونصب في أعلاه تمثال من البرونز يرمز للديانة المسيحية، ويبلغ ارتفاعه 4 م، صنعه تولومي موريل سنة 1567 م، يدور مع الرياح، ولذلك أطلق عليه اسم خيرالدو giraldillo أو دوارة الرياح، ومنها جاءت تسمية المئذنة بالخيرالدا، وارتفاع الجزء الإسلامي من المئذنة 69.65 م، ويلاحظ الزائر فيها روعة العمارة الإسلامية.

2.2.2. القصور: يمكننا أن نلاحظ أن القصور الموحدية تميل إلى الزهد والتقشف مقارنة بسابقتها المرابطية أو حتى التي جاءت بعدها، وفي عديد الأمثلة سواء ببلاد المغرب أو الأندلس، ومنها:

1.2.2.2. قصر الحجر بمراكش: بني في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي في منتصف القرن 12 م، استغل في البداية كمقر للحكام الموحدين قبل مرحلة التوسعات، يمثل الروح الإصلاحية للدولة الموحدية نظرا للتقشف في تزيينه بعناصر معمارية فخمة.

2.2.2.2. قصر البديع بمراكش: بني في العهد الموحدي في القرن 12 م، وأعيد بناؤه في عهد الدولة السعدية.

3.2.2.2. قصور الرباط: وتسمي أيضا قصبة الوداية بنيت في عهد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور خلال القرن 12م، ويعتبر جزء من مدينة رباط الفتح، وبه منشئات إدارية تابعة للسلطة الحاكمة وأجنحة سكنية، ذات طابع مدني ودفاعي في نفس الوقت.

4.2.2.2. قصر المبارك: موجود في مدينة إشبيليا وتعود أصوله إلى فترة بني عباد، ومع ذلك اتخذه الموحدون مقرا لهم، وكان يطلق عليه اسم دار الإمارة أو قصر المبارك، خلال فترة المعتمد بن عباد، في القرن 11م، وظل مستعملا في عهد الموحدين إلى غاية سنة 1172م.

5.2.2.2. قصر البحيرة: أمر ببنائه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، خارج باب جهور بإشبيليا سنة 567 هـ/1171 م، وقد اختط بحيرة في جنان تنسب لابن مسلمة القرطبي بعد أن عوضه عنها بجنات مماثلة.

6.2.2.2. قصر أبي العلا: كان للموحدين قصور بالمدن المهمة سواء بنوها هم أو أضافوا إلى القصور السابقة، ومنها مدينة شريش، حيث نجد في قصبة المدينة قصرا بالقرب من أحد الحمامات، يرجع إلى بداية القرن 13 م، عندما نصب السيد أبي العلا خليفة ولقب بالمؤمن سنة 1226 م.

3. الخصائص العمرانية.

تميز العمران الموحدي بالفصل بين المجالات العمرانية العامة التي يستخدمها الأهالي، والمجالات العمرانية الخاصة التي يستعملها الحكام، أما من الناحية المعمارية فتميزت العمائر الموحدية بالتقشف والزهد مقارنة بنظيرتها المرابطية وربما يفسر ذلك بميولها إلى الجانب الإصلاحي، واستخدام العقود (الأقواس)، التي الحدوية (تشبه حدوة الفرس)، والزخارف النباتية والهندسة المعتدلة غير المعقدة، وتغليب الجانب الوظيفي على البنايات بسبب الطابع الديني للدولة، والجمع بين الوظائف الإدارية والدفاعية، بالإضافة إلى الجوانب الرمزية للعمران الموحدي والمتعلقة بالجانب العقدي، وإبراز قوة وهيبة الدولة في ضخامة وسعة المنشآت المعمارية الكبرى كالمساجد والقصور والقلاع والأسوار والأبواب.

المحاضرة (09): مراحل وخصائص التطور العمراني عند الزيانيين والمرينيين والحفصيين.

تمهيد.

عرفت بلاد المغرب في الفترة الوسيطة، حركة عمرانية لافتة، ارتبطت بصعود دول إقليمية كبرى أقامها الزيانيون والمرينيون والحفصيون، حيث كان العمران تعبيرا عن القوة والنفوذ والتقدم الحضاري، تدخلت في إنشائه عوامل دينية وسياسية واقتصادية، فانعكست على تخطيط الحواضر والمدن، ونشأة المساجد والجوامع والكتاتيب، والزوايا والأربطة والمدارس، وتطور المرافقة العامة من طرق وأسواق وحمامات وغيرها، ومن خلال دراسة هذه المراحل، نستطيع الوقوف على إسهامات الدول الثلاث في تشكيل الهوية الثقافية والعمرانية للمنطقة، من خلال تاريخ بعض المدن التي تطور بعضها، وتراجع واضمحل بعضها الآخر، لكن التاريخ يذكرها جميعها بإيجابياتها وسلبياتها.

1. العمران عند الزيانيين.

تأسست دولة بني عبد الواد (الدولة الزيانية) في المغرب الأوسط سنة 633هـ/1235م، على أنقاض الدولة الموحدية، على يد يغمراسن بن زيان، وجعل تلمسان عاصمة لها، واستمر في حكمها ما يقارب الخمسين سنة، ويعود الفضل في تأسيسها إلى قبيلة بني عبد الواد الزناتية، وعرفت الدولة الزيانية فتن داخلية بسبب التنافس على العرش بين أفراد الأسرة الحاكمة، لكنه استطاع تحصينها وحمايتها من بني حفص والمرينيين وظلت من أقوي دول المغرب الإسلامي طوال أيام حكمه. وفي هذا المحور سنتطرق إلى المراحل العمرانية التي مرت بها، ومظاهر التطور العمراني لديها، وكذا الخصائص العمرانية التي تميزت بها.

1.1.المراحل العمرانية: قسمت إلى ثلاثة مراحل هي: مرحلة التأسيس (1236-1318 م)، ومرحلة الازدهار (1318-1399 م)، ومرحلة الضعف (1399-1574 م).

1.1.1.مرحلة التأسيس (1236-1318 م): لقد اهتم السلطان يغمراسن بن زيان (633-680 هـ/1237-1283 م) أول ملوك الدولة الزيانية بالبناء والعمران، فأقام الصومعتين بالجامعين الأعظمين بتلمسان، وعرض عليه أن يكتب اسمه عليهما، فرفض ورد بلغة البربر يسنت ربي، مما يدل على تقواه وورعه وبعده عن التفاخر.

واستمر البناء مع بقية السلاطين الزيانيين الذين جاءوا بعد يغمراسن، فوسعوا خطة مدينة تلمسان، ويذكر ابن خلدون قصورها الزاهرات والصروح الشاهقة، والبساتين الرائقة، كما أشار إلى أن قصور تلمسان كانت في منتهي الحسن، وساهم في بنائها أحذق البنائين، حتى صعب على من بعدهم أن يبنوا مثلها.

وفي هذه الفترة أيضا كان سلاطين بنو زيان يبنون المدارس بهدف نشر التعليم والثقافة، وإحلال مذهب السلف الصالح وفي مقدمته مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وقد أنشأ الزيانيون مدرسة ابني الإمام، والتي تعتبر أول مدرسة بنوها في المغرب الأوسط سنة 1310 م، في عهد السلطان أبي موسي حمو الأول بتلمسان، وعين على رأسها ابني الإمام وهما: أبي زيد عبد الرحمان بن الإمام، وأخيه أبي موسى عيسى بن الإمام.

2.1.1. مرحلة الازدهار (1318-1399 م): ودائما في سياق بناء المدارس، وفي عهد السلطان أبي تاشفين ابن حمو الأول الذي بدأ حكمه سنة 1318، فقد قام ببناء المدرسة التاشفينية، التي تقع بجانب المسجد الأعظم، وزخرفها حتى أصبحت قصرا من أعظم قصور الملوك، كما قام السلطان أبي حمو موسي الثاني الذي توفي سنة 1389 م، ببناء المدرسة اليعقوبية، للعلامة أبي عبد الله الشريف التلمساني، وشيد إلى جانبها مسجدا.

قبل تأسيس المدارس والزوايا كانت المساجد تستقبل الطلبة والمصلين، فهي مقر للعبادة وبمثابة جامعة أو معهد لتلقي الدروس، ومكان تجتمع فيه العامة والخاصة، وانتشرت المساجد في العهد الزياني، وتميزت بطراز معماري زادها جمالا، وتذكر المصادر التاريخية أن عدد المساجد في تلمسان في عهدها الزاهر بلغ نحو ستين مسجدا.

ومن بين المساجد التي بنيت في هذه المرحلة يوجد مسجد أبي الحسن الذي شيده السلطان الزياني أبو سعيد عثمان سنة 696 هـ-1296 م، تكريما للعالم الجليل أبي الحسن علي بن يخلف التنسي، كما تدل عليه لوحة كتابية رخامية مرصعة في الجدار الغربي لبيت الصلاة، ويعتبر هذا المسجد تحفة معمارية جمعت بين الفن الأندلسي والفن الزياني.

ومسجد أبي مدين بالعباد الذي أمر ببنائه السلطان أبو الحسن المريني سنة 739هـ-1339 م، كما توضحه لوحة الكتابة، وقال عنه ابن خلدون: "وقد شيد السلطان أبا الحسن في العباد مسجدا عظيما، وكان عنه ابن مرزوق خطيبا به على عادتهم في العباد"، وأخذ المسجد اسم الرجال الصالح أبي مدين شعيب.

وظهرت أيام الدولة الزيانية منطقة صناعية خاصة بتلمسان جمعت فيها مختلف الصناعات داخل المدينة، وعرفت باسم دار الصنعة، أنشأها السلطان أبو حمو موسي الثاني، وعرفت بالكثير من الصناعات والحرف كصناع الرماح والدروع والألجمة والسروج والنجارة والحدادة والصياغة والدباغة وغير ذلك.

3.1.1. مرحلة الضعف (1399-1574 م): بداية التحول للنشاط العمراني في هذه الفترة، على الرغم من أن تلمسان بقيت من أعظم حواضر العالم الإسلامي، تشد إليها الرحال لطلب العلم، واستمرت هذه الفترة إلى غاية أفول وسقوط الدولة الزيانية.

2.1. مظاهر التطور العمراني: بالإضافة إلى تشييد المساجد والمدارس والقصور وغيرها، فإن شق الطرق من بين مظاهر التطور العمراني بالدولة الزيانية، وتعتبر تلمسان محطة هامة في شبكة الطرق التي تصل المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، وشبكة من الطرق البرية الداخلية بين المدن الزيانية، كما تعتبر محطة على الطريق نحو السودان للتجار الوافدين على سواحل المغرب الأوسط، وهناك طريق بري يخرج من تلمسان بمحاذاة سفوح جبال الأطلس الصحراوية الداخلية الشمالية حتي المسيلة ثم نقاوس ثم بغاية ثم تبسة إلى تونس، لكن استخدامها قليل بسبب قلة الأمن، وأعطي هذا التنوع في الطرق بتلمسان أهمية تجارية خاصة بالمنطقة.

3.1. الخصائص العمرانية: تميز العمران الزياني بعدة خصائص عامة ارتبطت بالنشاط الحرفي وتنوعه، وبالحركة الاقتصادية داخل المجال العمراني، وبمواد البناء وطريقة تشكيلها واستخدامها، حيث أن مواد البناء المستخدمة شملت الحجارة والآجر والكلس والقرميد، والخشب للتسقيف، واشتد الإقبال على هذه المواد خاصة في بناء القصور والأسوار العالية، والمآذن والأبراج، ومن خصائص العمران الزياني أيضا الاهتمام ببناء القصور وغرس الحدائق وتزويدها بالمياه، وبناء صوامع الجوامع الشاهقة وزخرفتها، مثل صومعة الجامع الأعظم بتلمسان، التي استخدم الحجر المنحوت في بناء قاعدتها والآجر في الأجزاء العلوية مع التركيز على الزخرفة الهندسية.

كما استخدمت الطابية في بناء أسوار المدن والدور السكنية البسيطة والمتواضعة، نظرا لمقاومتها للمنجنيق، ووفرتها قريبا من المدينة، واستخدم الجص كمادة تزيينية، لأنه متوفر في الكتل الجبلية المحيطة بتلمسان، ويحضر في أفران خاصة، ثم يطهى المسحوق الناتج فيها، ويعبأ في أكياس لحمله على الدواب.

وتميز العمران الزياني باستخدام مادة الزليج لتبليط الأرضيات وتكسية الجدران، ويشتمل على أنواع عديدة من الزخارف والألوان، وله تأثير كبير في ترطيب المنازل والغرف في فصل الصيف ناهيك عن قيمته الجمالية، ولا تزال قطع منه تغطي قصر المشور بتلمسان، وتضمنت أشكال زخرفية نباتية وهندسية خاصة النجمة السليمانية الثمانية، التي نجدها في المسجد والقصر الملكي. وانتشر التسقيف بالقرميد، لتغطية سقوف المساجد والمنازل والقصور، وكانت لها مصانع خاصة بالمدينة تسمي القرمادين، عند باب العقبة وباب القرمادين.

ومن أشهر المعالم المعمارية الزيانية يوجد قصر المشور الذي صمم بطريقة متقنة، ويحتوي على لمحات فنية رائعة، كقاعاته المبلطة بالفسيفساء الملونة والزليج المتنوع الأشكال والألوان، ونافورة المياه المصنوعة من الرخام الجيد، بالإضافة إلى عديد المدارس والمساجد التي سبق ذكرها، مثل مسجد سيدي أبي الحسن ذو المحراب المدبب وزخارفه الجصية الرشيقة.

2. العمران عند المرينيين.

أسس محمد بن عبد الحق الدولة المرينية سنة 642 هـ/1244 م، بعدما خاض صراعات طويلة مع الزيانيين الذين دخل معهم في منافسة شرسة، والموحدين الذين كانوا يعيشون آخر أيامهم قبل سقوط دولتهم، وكان الفضل في نشأتها لقبيلة زناتة التي جاءت من قفار صحراء المغرب الأقصى، ووحدت المغربين الأوسط والأقصى تحت سلطانها، وجعلت من فاس عاصمة لدولتها، وتوسعت الدولة في عهد السلطان أبي الحسن المريني، حتى وصلت تلمسان، وعرفت تفرعا عمرانيا كبيرا يمكن رصده من خلال دراسة مراحله الثلاث.

1.2. المراحل العمرانية: سنشهد في هذا المحور كالعادة ثلاثة محاور هي: مرحلة التأسيس والتوسع (1244–1310م)، ومرحلة الازدهار (1310–1420 م)، ومرحلة الضعف (1420–1465 م).

1.1.2. مرحلة التأسيس والتوسع (1244–1310 م): لقد ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران عند المرينيين، بعد أن تولوا زمام الحكم في بلاد المغرب، ونقلوا التقاليد الفنية والحضارية الأندلسية التي ورثوها إلى مدنهم وقصورهم وقلاعهم.

كما قاموا بتخطيط المدن، حيث بنى السلطان يوسف بن يعقوب مدينة المنصورة سنة 698 هـ/1299 م، وهي تبعد بكيلومترين غربي تلمسان، وكان بنائها في البداية كمنشأة عسكرية وتجمع سكني أقيم أمام مدينة تلمسان المحاصرة، وهي مدينة مستطيلة 1305x750م، وبأركانها أبراج لا منفذ لها، وعرض جدارها أكثر من 1 م، وفي شمال المدينة ستة أبواب تقابلها ستة أخري في جنوبها، كما أمر السلطان يوسف بن يعقوب ببناء أبواب تلمسان بين عامي 699–702 هـ/1298–1302 م، ثم أمر ببناء الدور السكنية الواسعة والمنازل الرحبة والقصور الأنيقة، واتخذ قصرا سكنا له وأحاطه بالأسوار، وأمر أيضا بتجديد مدينة وجدة وحصن أسوارها، وجعل بها قصبة ودارا مقرا لسكناه ومسجدا وحماما.

كما أمر السلطان يوسف بن يعقوب ببناء قصر مدينة فاس الجديدة سنة 686هـ/1287م، وأصبح مقرا للسلطان وأبنائه من بعده، وبنى دارا في حصن تاوريرت سنة

696 هـ/1296 م، وبنى دار كبيرة للضيافة في بلدة الزاوية، وقصورا بمدينة المنصورة ووجدة، وهناك دور عامة أغفلتها المصادر.

ونلاحظ في هذه المرحلة اهتمام المرينيين بالطابع الدفاعي لمنشاتهم باعتمادهم على البنيات الحجرية، مقارنة بالعمائر المدنية الفاخرة، لكن في نفس الوقت بدأوا الاهتمام بالعمران الديني، فبنى السلطان أبي يعقوب مدرسة العطارين سنة 1280 م، التي تعتبر نواة للتطور العمراني الديني وأولي المدارس المرينية بمدينة فاس، كما اهتم المرينيون بتجديد أسوار مدينة فاس وتوسيعها لزيادة مساحتها حتى تستوعب أعداد المهاجرين القادمين من الأندلس.

2.1.2. مرحلة الازدهار (1310–1420 م): شهدت فترة السلطان أبي سعيد عثمان (1310–1331 م) الذي سمي "السعيد" لأنه وحد المغرب، طفرة نوعية في العمران لا سيما الجانب الزخرفي والجمالي، حيث قام ببناء جامع الأنصار في تلمسان (1335)، وبناء مسجد ومدرسة العطارين بفاس (1323–1325)، وسار سلفه السلطان أبي عنان فارس (1331–1351)، على نفس النهج.

لقد كان للاستقرار السياسي والحركة التجارية الناشطة عبر الصحراء، والعلاقات الوطيدة مع بلاد المشرق ومصر وبلاد الأندلس، تأثيرا كبيرا على ازدهار العمران، فوسعت مدنا قديمة وتم بناء مدن جدية، فشيدت القصور الفخمة المزخرفة بالفنون المعمارية والمزينة بالحدائق الغناء في فاس ومراكش، وطورت قنوات المياه وشقت الطرق، وكثرت المرافق العامة التي تقدم الخدمات للأهالي كالأسواق المكشوفة والمسقوفة، والحمامات العامة والخاصة.

3.1.2. مرحلة الضعف (1420–1465 م): استمر النشاط العمراني خاصة في مجال العمارة الدينية والتعليمية، لكن ليس بنفس المستوي والزخم الذي عرفته الفترة السابقة، ويمكن إيعاز هذا التراجع إلى كثرة الحملات العسكرية وما تتطلبه من إنفاق، حيث تم تحصين مدن الساحل مثل البيضاء وآسفي بأبراج مدفعية، مع تزايد الهجمات البرتغالية والإسبانية على السواحل الأطلسية.

قبل سقوط الدولة ومع كثرة الهجمات البرتغالية ودخول الدولة في الصراعات والتناحر الداخلي، اقتصر الجانب العمراني على صيانة المباني وتحصينها أكثر من بناء منشآت جديدة، وبرزت خصائص فنية معمارية، تميزت فيها فاس عن غيرها من المدن والأقاليم.

2.2. مظاهر التطور العمراني: نستطيع أن نستشف المظاهر العامة للتطور العمراني المريني في النقاط التالية:

– **تخطيط المدن:** حيث قاموا ببناء مدينة المنصورة التي تقع غربي تلمسان بحوالي كيلومترين، كمنشأة عسكرية وتجمع سكاني عندما حوصرت تلمسان.

– **تجديد بناء مدينة وجدة:** أمر السلطان يوسف بن يعقوب بتجديد بنائها وتحصين أسوارها، وإقامة داخلها قصبة ودار ليسكن فيها ومسجدا وحماما.

– **المنشآت المدنية:** تمثلت في بناء القصور والدور السكنية، والفنادق، والحمامات، والبيمارستانات، وغيرها.

– **بناء القصور والدور السكنية:** بناء قصر مدينة فاس الجديدة سنة 686 هـ/1287 م وأصبح مقرا له ولأبنائه، وبناء قصور بالمنصورة ووجدة، وبناء حصن تاوريرت ودار الضيافة في الزاوية.

– **بناء الفنادق:** كان بناء الفنادق بالقرب من الأسواق والحمامات والجوامع، لإيواء التجار والوافدين على البلاد، وأدت دورا في الحياة الاقتصادية لأنها كانت أيضا مكانا لتخزين وبيع المواد التجارية، وانتشرت على طول الطرق لتقديم الخدمات للمسافرين والحفاظ على سلعهم وأمتعتهم، حيث بنى السلطان يوسف فندق الشماعين ببضع كيلومترات عن جامع القرويين، وتميزت باتساع بنيانها فقسم منها فسيح جدا، كالتي تقع بجوار الجامع الكبير بفاس الجديدة، فهي تتألف من ثلاث طوابق.

– **الحمامات:** كانت توجد حمامات عامة وخاصة، وتتكون من ثلاث قاعات بها غرف صغيرة مرتفعة قليلا، يصعد إليها بخمس أو ست درجات، مخصصة لخلع الملابس، وفي وسط

القاعات صهاريج أو أحواض مائية، والقاعتان الأخيرتان مخصصتان للاستحمام، أما أرضية الحمام فتكسي عادة بالفسيفساء أو باللوحات الرخامية، وتزين جدرانها بالزليج والنقوش والرسوم الجميلة.

– **البيمارستانات:** هي بمثابة المستشفيات حاليا، ويوجد في مدينة المنصورة بيمارستان بناه السلطان المريني يوسف بن عبد الحق لما تولي الحكم سنة 685 هـ/1286 م، وعهده إلى أشهر الأطباء لإدارته، وموله من أموال الأحباس العقارية الكثيرة التي أوقفها عليه.

ويتجلى التطور العمراني للدولة المرينية أيضا في المنشآت الأخرى، مثل الكتاتيب، والمدارس القرآنية التي صارت مراكز عمرانية تشبه المركبات المتكاملة تضم قاعات للتدريس ومسجدا وخلوة للشيخ ومقبرة، وعليه فهي نماذج لتطور العمارة التعليمية في المغرب الإسلامي، مثل مدرسة البنين ومدرسة الصفارين، والمساجد والزوايا، والمنشآت العسكرية، مثل الأسوار والأبراج والقصبات، التي اشتهرت بها مدنها وحواضرها.

3.2. الخصائص العمرانية: ترجع روعة العمران المريني إلى جودة ذوق الصناع وحسهم الفني والتنوع والدقة، فقد امتاز باستخدامه الطابية والآجر والحجر غير المنقوش، والنقش على الخشب والجبس، والأدهان البديعة والشمسيات الملونة والنحاس المموه، وترصيع منارات المساجد بالزليج، وزخرفة الثريات.

وعرفت الخصائص العمرانية للمرينيين بأنها مزيج بين الطابع البربري المحلي والتأثيرات المشرقية والأندلسية، واستخدام الحجر الرملي والطوب المجفف، والجبس والجص في الزخرفة الداخلية وتغطية المنشآت المعمارية، وأبدعوا في نحت الخشب وتزيينه لاستعماله في الأبواب ومنابر المساجد والتسقيف، كما اهتموا بإنشاء الواجهات والمداخل الرئيسية المزينة بالزخارف، وعكس العمران المريني الطبقية الاجتماعية، وذلك من خلال مساكن العامة البسيطة والمتواضعة، ومساكن الخاصة المتمثلة في قصور ومساكن الأغنياء ذات الأفنية الواسعة والحدائق.

3. العمران عند الحفصيين.

الدولة الحفصية (634-981 هـ/1237-1573 م)، هي الدولة الإسلامية الرابعة بالبلاد التونسية، ودامت قرابة 347 سنة، مؤسسها هو أبو زكرياء يحي الحفصي، بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي، نسبة إلى هنتاتة إحدى فروع قبيلة المصامدة البربرية بالمغرب الأقصى، تمكن من تأسيسها عندما كان واليا على البلاد التونسية في عهد الدولة الموحدية، منذ أن أصبحت تابعة لها سنة 555 هـ/1160 م، بعد تراجع الموحدين وضعفهم، أعلن الاستقلال عنهم دون أن يلقي أية معارضة، وذلك سنة 634 هـ/1237 م. وقد بلغ عدد أمراء الدولة الحفصية 24 أميرا (بن عامر، الصفحات 17-18). وفي هذا المحور ستكتشف أهم مراحله العمران الحفصي وتطوره وخصائصه.

1.3. المراحل العمرانية: تنقسم إلى ثلاثة مراحل، هي مرحلة التأسيس والاتساع، ومرحلة الازدهار، ومرحلة الضعف.

1.1.3. مرحلة التأسيس والاتساع (627-700 هـ/1229-1301 م): تميزت بترميم وإصلاح المدن المتضررة والمخربة في نهاية الفترة الموحدية، وتحصين العمران الدفاعي عامة، وأهم سيماتها:

- الاهتمام بالقلاع والحصون الواقعة في المناطق الشمالية على سواحل البحر المتوسط، بسبب تنامي تهديدات الصليبيين، فبنوا مجموعة من القلاع بين بنزرت وصفاقس وقابس، وإعادة تحصين وبناء باب البحري في مدينة تونس في عهد عبد الله محمد المستنصر.

- القيام بإصلاح القصبة (قصر السعيد) وأصبح مقرا للسلطة الحاكمة، وتشييد دار الحكومة والقصر الكبير، وإحياء جامع الزيتونة، وتطوير وترميم وإصلاح مدينة تونس العتيقة.

- اتساع رقعة الدولة: ففي عهد أبي يحي أبو بكر المستنصر (1318-1346)، وصل نفوذ الحفصيين إلى مدن توزر وقفصة، وبنوا بعض القصور الجديدة مثل قصر الشبيكة والفجيج، وجعلوها كمقرات للحكم والإقامة.

استمر اتساع العمران في العهد الحفصي، فأنشأ بمدينة تونس ربضان جديدان خارج سور المدينة القديمة، عند باب الجزيرة وباب السويقة، وسور جديد خارجي يحيط بالربضين، ويجعلهما بين سورين، وبنيت بينهما أبواب عظيمة، أهمها: الباب الجديد، وباب البحر الذي اللذان لا يزالان قائمان إلى اليوم، وباب المنارة الذي هدم لتوسع الطريق، ومكانه مواجه لمقر وزارة الدفاع التونسية حاليا، وتجمعت عند هذه الأبواب دكاكين بعض الحرفيين، فالصباغون داخل باب الجزيرة، والحدادون عند باب الجديد، والسراجون عند باب المنارة، وكانت تجاور باب البحر عدة فنادق، يتوزعها التجار النصارى، فلما ضاقت بهم بنوا ربضا جديدا خارج ذلك الباب، كان بمثابة النواة الأولي للحي الأوربي أو المدينة الحديثة، وامتازت برحبات واسعة للبيع والشراء.

وازدادت منشآت المدينة وامتلأت ضواحيها بالقصور والمنازل، فيذكر شهاب الدين العمري أنه توجد بتونس ثلاث مدارس: الشماعية والمعرضية (خربت) والتوفيق، وبها الحمامات والأسواق الجليلة، ويصنع بها الثياب الإفريقي وهو قماش رفيع من القطن والكتان معا، ومن الكتان وحده، وللأمير بستانان: أحدهما ملاصق لربض البلد يسمي رأس الطابية، والأخر بعيد عن بقية البساتين يسمي أبو فهر، وبينه وبين البلد ثلاثة أميال، والماء مساق إليها من ساقية زغوان، ويشرب أهل تونس من الآبار، أحدها بئر ضبيان، وبالبيوت صهاريج لتجميع مياه الأمطار لغسل القماش وغيره.

2.1.3. مرحلة الازدهار (700-757 هـ/1301-1373 م): تعتبر الفترة الذهبية للعمران في الدولة الحفصية، خلال حكم السلطان أبي يحي أبو بكر المستنصر، وأبي العباس أحمد الفضل، نظرا لما وصلته الدولة في عهدهما من قوة عمرانية عسكرية واقتصادية.

وعرفت مدينة تونس تطورا معماريا ذو دلالة هامة، لوحظ في كيفية تشييد المساجد والأسواق المسقوفة، والتي تميزت عن غيرها بالقباب الخشبية، وأعمدتها الحجرية المصقولة، بالإضافة إلى ذلك فإن حياة الأهالي تحسنت بفعل إدخال إنشاء الخزانات المائية والساحات في تخطيط المدن.

بالإضافة إلى تأثر البنى التحتية الإدارية والدفاعية بتطور العمران، من خلال التأثر بالتقنيات الأندلسية المستخدمة، في المدن الساحلية مثل صفاقس وبنزرت والمنستير، أما المدن الداخلية فعرفت اتساعا معماريا وبناء منشآت دينية وقلاع وحصون، كما ازدهرت الفنون الزخرفية وعرفت تفاعلا حضاريا واسعا، متأثرة بالتراث المغربي الأندلسي، خاصة في زخرفة القباب والعقود، وتزيين القصور بالبلاط المزجج المستورد من إسبانيا.

ونظر للأمن والرخاء الذي عرفته تونس في هذه المرحلة أصبحت قبلة للتجار النصارى الأوربيون، الذين استقروا بتونس العاصمة في فنادق خاصة خارج باب البحر، تحولت فيما بعد إلى مساكن تكون منها ربض خاص بهم، صار بعدها حيا أوربيا، كما أنتشر نظام السقايا بالعاصمة وبعض المدن، منها سقاية شرقي جامع الزيتونة، وإنشاء عدد كبير من الصهاريج، وحفر الإبار، وتنظيم توزيع المياه بواسطة الخزانات.

تشييد وتجديد وترميم الأسوار والقناطر والحصون، ومنها قنطرة وادي الفصل بهرقلة، وحصن بتونس العاصمة. وإنشاء الأسواق والحمامات بتونس العاصمة، وبمدن سوسة والمنستير وصفاقس. وبناء وترميم المساجد والمدارس بتونس العاصمة. وإنشاء محارس بحرية في الثغور للمرابطة. وعدة زوايا في الطرقات لأبناء السبيل، مثل زاوية بعين الزميت بين تونس وباجة، وزاوية الفندق قبلي جبل زغوان، وزاوية غرباطة بين قفصة وتوزر. وبناء عدة كتاتيب وبناء ميضأة بسوق العطارين حذو المكتبة الخلدونية.

ونشطت الحركة العمرانية في تونس فبلغ عدد المنازل بالعاصمة وحدها سبعة آلاف سنة 763 هـ/1361 م، حسب ما نقل عن ابن الشماع، وبلغ عددها عشرة آلاف حسب ما نقل عن الزياتي، وكانت أغلب المنازل صحية تشتمل على آبار ومواجل، وشيدت الحمامات ومنها حمام الرميمي، وساهم قدوم الأندلسيون في تطور العمران، فشيد الأمراء قصورا مشتملة على بساتين، أشهرها قصر باردو، وبرج السلاسل بالمرسى، وقصر رأس الطابية، وقصر أبي فهر قرب أريانة.

3.1.3. مرحلة الضعف (775-982 هـ/1373-1574 م): يمكن اعتبار وفاة السلطان أبي العباس أحمد بن محمد المنصور (1370-1394 م)، كبداية لهذه المرحلة، وعرفت أيضا تفاقم الصراعات العائلية والتراجع الاقتصادي بسبب سنوات الطاعون وخاصة سنة (1397 م)، والغزو الصليبي والتوسع العثماني.

وتراجع العمران في هذه الفترة بسب كثرة الفتن والقلاقل والثورات في عهد الأمراء الأخيرين، أنهك الجيش وضعف وفشل وتفككت عناصره، فاضطر الأمير الثالث والعشرون أبو العباس أحمد لتشكيل جند ملكي جديد واجه قوات علي باشا فهزمته، وفي سياق الأحداث اغتنم خير الدين بربروس والي الجزائر الفرصة واحتل بأسطوله مدينة بنزرت، وتقدم برا إلى حلق الوادي واحتلها، بعد فر الأمير الحفصي الرابع والعشرون الحسن بن محمد، وذلك سنة 935هـ/1528 م، فاستنجد هذا الأخير بملك إسبانيا شرلكان أي شارل الخامس، فنزل بحلق الوادي بأسطول فيه 100 ألف مقاتل وطرد قوات خير الدين بربروس منها، وزحف على العاصمة تونس واحتلها مجبرا قوات خير الدين العودة إلى الجزائر.

لكن ملك إسبانيا استضعف السلطة الحفصية، فأذن لجيشه باستباحة العاصمة تونس مدة ثلاثة أيام، بالقتل والسلب والنهب، فعاث فسادا في منشآتها العمرانية، وهجم على جامع الزيتونة وربط خيله به، وأحرق ما بمكتبته من كتب ومجلدات، وإثر ذلك أمضي الأمير الحفصي الحسن بن محمد معاهدة استسلام جعلت من تونس محمية إسبانية في 6 صفر سنة 942 هـ/6 أوت 1535 م، فاحتلوا سواحل البلاد وقاموا بعدة تحصينات، منها إنشاء قلاع حربية بكل من جزيرة شكلي، وبنزرت، وبرج زوارة، والمنستير، وبرجا حربيا بالمهدية، وحصنا بقليبية.

وبسبب المقاومات والتمردات التي قادها الأهالي ضد الاحتلال الإسباني، اقترف في حقهم الإسبان مختلف الفظائع وعاملوهم بجور، وانتقموا منهم بتهديم الحنايا التي يجلب عليها الماء من جبل زغوان وغيره، وهتكوا حرمة المساجد، وجعلوا جامع باب البحر مستودعا للذخيرة، وهتكوا حرمة زاوية الشيخ محرز بن خلف ونبشوا ضريحه، وربطوا خيولهم بجامع الزيتونة،

وحفروا حفرة صغيرة في بلاط صحنه كي لا تعثر خيلهم فيه، وداسوا ما به من كتب بخيلهم، وألقوها في الطرقات ومزقوها بسيوفهم.

ومن الأعمال العمرانية التي قام بها الإسبان، تشييد حصن الباستيون، خارج باب البحر بتونس العاصمة، حيث السفارة الفرنسية حاليا، وجددوا بناء الحصن الذي كان بوسط بحيرة تونس، ورمموا حصن حلق الوادي وأسوارها. وقاموا بكل هذا من أجل حماية جيشهم وصد الهجمات المضادة لهم، واستخدام هذه المنشآت حسب حاجتهم إليها طبعا.

ورغم دخول تونس تحت السلطة العثمانية سنة 1574 م، إلا أن التراث العمراني الذي خلفته الدولة الحفصية ظل صامدا يمثل الهوية العمراني لتونس، وبالأخص في المدينة العتيقة التي أدخلت قائمة التراث العالمي من طرف منظمة اليونسكو سنة 1979 م.

2.3. مظاهر التطور العمراني.

يمكن أن نجمل مظاهر التطور العمراني في العهد الحفصي من خلال العناصر الآتية:

1.2.3. المنشآت المائية: ترميم الحنايا القديمة بتونس العاصمة وإيصال الماء لها من زغوان بعدما كانت محرومة منه، وإصلاح الحنايا الأصلية الغير الشاملة لفرع جوقار، وتشييد تكملة لها بالمكان المسمى المنيهلة يقع بين باردو وسبالة صاحب الطابع. وإحداث سقايا بالعاصمة وبعض المدن، ومنها واحدة شرقي جامع الزيتونة، وإنشاء عدد كبير من الصهاريج وحفر الآبار وتنظيم توزيع المياه.

2.2.3. المساجد والجوامع: اهتم الحفصيون بتشييد المساجد والجوامع ومنها: جامع القصبة بتونس العاصمة، الذي بناه الأمير أبو زكرياء يحي قبل تأسيسه للدولة الحفصية، والذي يمتاز بالمقرنص الجبسي الموجود تحت قبة محرابه، وبزخرفة صومعته من الخارج، وهي مربعة الشكل وشاهقة الارتفاع، ونظرا لوقوع هذا الجامع في أعلى بقعة بالعاصمة وارتفاع صومعته، اختير فيما بعد لنشر علم أبيض فوق صومعته، ينبه بقية جوامع العاصمة بدخول وقت الصلاة، ولا يزال قائم بذات صومعته إلى اليوم.

3.2.3. المدارس التعليمية: عرفت تونس بناء المدارس التعليمية في مختلف مدنها، منها المدرسة الشماعية والمدرسة المعرضية، وانتشرت في العاصمة مدارس كثيرة، جلب لها الأساتذة من الأندلس، وأسكن بها الطلبة، وأنشأوا بها المكتبات ومنها: مدرسة القصبة في البلاط الحفصي للعناية بأبناء الأمراء، ومدرسة التوفيق، والمدرسة العنقية، والمدرسة المنتصرية، والمدرسة الشماعية، والمدرسة المرجانية، والمدرسة العصفورية.

4.2.3. القصور والمنازه: كان الأمراء الحفصيون يملكون قصورا تشتمل على بساتين بضواحي العاصمة، ومنها: قصر بباردو، وبرج السلاسل بالمرسى، وقصر رأس الطابية، وقصر أبي فهر قرب أريانة، الذي أنشأه الأمير محمد المستنصر بالله، وبه بحيرة تجري فيها القوارب.

5.2.3. الأسوار والأبواب والقصبات: كان مقر الحكم بالعاصمة في القصبة التي تقع بجوار المعهد الصادقي الحالي، ووقع تهديمها في وقتنا الحاضر، وكانت تشمل دواوين الحكومة، ومقر انعقاد المجالس، ومساكن الأمراء وعائلاتهم، وبعض رجال حاشيتهم، وقسم من الجند الملكي، ورممت قصبة مدينة باجة، وحصن رباط المنستير، وأنشئت القصبات والمحارس والمعاقل ومنها: قصبة بكل من مدن سوسة والمنستير وصفاقس والكاف.

6.2.3. الأسواق والحمامات: إنشاء الأسواق والحمامات بالعاصمة، وبمدن سوسة والمنستير وصفاقس، وأدي اهتمام السكان بالنظافة إلى الإكثار من إنشاء الحمامات والتفنن في بنائها ونظافتها ومنها حمام الرميمي.

7.2.3. المستشفيات (البيمارستانات): تأسيس أول مستشفى بالعاصمة، وتنظيم الطب وترقيته، مما جعل ملوك فرنسا يستدعون أمين أطبائه لعلاج مرضاهم، وكانت توجد عدة مستشفيات بالعاصمة والمدن الكبرى: مثل القيروان وسوسة وصفاقس، ومن المحتمل أم مستشفى سوسة كان بالمكان المسمى اليوم حي بين الفهاوي، أما مستشفى العاصمة فالظاهر أنه اندثر، وكان الأطباء يتخرجون من المدرسة الصقلية والمدرسة الأندلسية.

8.2.3. الجسور: تشييد القنطرة التي تربط جزيرة جربة باليابسة من جهة جرجيس، والتي لا تزال قائمة رغم مرور السنين، وقبل ذلك كان الناس لا يدخلون إلا في السفن، وخربت هذه القنطرة مع طول السنين وتم إصلاحها في عهد الحماية الفرنسية.

المحاضرة (10): الكوارث الطبيعية وانعكاساتها على البنية العمرانية في الغرب الإسلامي.

تمهيد.

توضع هذه الدراسة ضمن متطلبات دراسة العلاقة بين الكوارث الطبيعية والعمران في الغرب الإسلامي، لأنها توضح التأثيرات السلبية التي خلفتها هذه الكوارث في تخطيط وتشكيل الحواضر والمدن، ففي الفتر الإسلامية الوسيطة شهدت هذه المنطقة عدة كوارث طبيعية الأمراض والأوبئة والزلازل والفيضانات وغيرها، أدت إلى التأثير على المنشات العمرانية.

وتوضح لنا المصادر التاريخية طريقة تعامل الإنسان المحلي في هذه البيئة مع مخلفاتها وآثارها، فقد اكتسبت هذه المجتمعات خبرات تراكمية، مكنتها من التعامل والتكيف مع هذه الكوارث وفق إجراءات وآليات معينة، توظف ما هو متاح من إمكانيات بشرية ومادية، عبر سياقات تاريخية مخالفة ومتعددة سنتعرف عليها خلال أطوار هذه المحاضرة.

1. السياق التاريخي للكوارث الطبيعية في الغرب الإسلامي.

الكوارث الطبيعية تحول مدمر في طبيعة وطريقة حياة الإنسان، تتسبب في عدد كبير من الضحايا والأضرار المادية والبشرية الهائلة، وتشكل الزلازل والفيضانات والعواصف والحرائق وموجات الصقيع والجفاف، والآفات الحشرية كالجراد الأكثر ذكرا في المصادر التاريخية، والكوارث الطبيعية التي أصابت المنطقة، تعود أحيانا إلى أسباب إنسانية، وفي حالات كثيرة إلى جوائح ومجاعات وأوبئة، وأكثر ما يتأثر به ويتضرر منه العمران هي الكوارث الطبيعية الفجائية كالزلازل والفيضانات.

عرفت بلاد المغرب الإسلامي عبر مراحلها التاريخية خلال الفترة الوسيطة، كوارث وأمراض وأوبئة، خلفت أضرارا جسيمة على السكان والعمران، وأزمت الأوضاع الاجتماعية والسياسية بالمنطقة، ويعتبر الطاعون والوباء من أكثر الأزمات خطورة، نظرا لتهديده حياة السكان، وخلق عدم الاستقرار، وتأثيره على الصحة في الحواضر والمدن والأرياف. وتعتبر

الفيضانات كالتي تحدث بوادي سبو الأوسط بالمغرب الأقصى، من بين الإشكالات الخطيرة التي تؤثر على المجال العمراني، منذ زمن بعيد، فالمنطقة التي تقع شمال شرق فاس على سبيل المثال كانت تعاني من الفيضانات على مر التاريخ، ومنذ القرن 8 الميلادي.

1.1.تصنيفات الكوارث الطبيعية: تصنف الكوارث إلى عدة أصناف منها:

1.1.1. القحط والجفاف: عدم هطول الأمطار واحتباسها يؤدي إلى تضرر البلاد لنقص حاد في الغلال والمحاصيل الزراعية، مما يؤثر على التركيب النباتي والحيواني، وتنتج عنه هجرات جماعية إلى مناطق أخري، وفي الفترة الوسيطة ضرب الجفاف حاضرة بجاية وأثر كثيرا على سكانها، ويذكر ابن الأثير الجفاف الذي ضرب إفريقية سنة 576 هـ وتسبب في توقيف التوسع الموحدي نحو الشرق.

2.1.1. الرياح والأعاصير: تهب على شمال إفريقيا رياح تسمي سيروكو وهو لفظ إغريقي يعني جاف، وتسمي محليا بالشهيلي، تهب بشدة وتجلب الغبار وتمتص النداوة وتصحبها حرارة شديدة، وأغلب ما تكون في الصيف، توهن الإنسان والحيوان، وتيبس النباتات، مما ينتج مجاعات، وتعتبر العواصف أقل عنفا من الأعاصير لأن رياحها أقل سرعة.

3.1.1. الفيضانات والسيول: تعتبر من الكوارث المدمرة، وتحدث نتيجة اجتياح كميات كبير من المياه للأرض، جراء الأمطار الغزيرة والسيول، أو ارتفاع منسوب المياه، في الأنهار والبحار والمحيطات، وحدوث الفيضانات يؤدي إلى إغراق الأراضي الزراعية، والمنازل والإنسان والحيوانات، وتتسبب في انتشار الأوبئة، وكانت حواضر المغرب الأوسط تتميز بالبرد وصعوبة المناخ، ويذكر التاريخ تلك الأمطار التي هطلت علي أبي القاسم الفاطمي وفرضت عليه الإقامة شهرا متواصلا في سوق إبراهيم سنة 315 هـ.

4.1.1. الزلازل: من أقوي الكوارث الطبيعية وذات تأثير هائل وعنيف، على الطبيعة والإنسان، فهي تحول العمران إلى خراب، وتخبرنا المصادر التاريخية عن زلازل حدثت ببلاد المغرب الإسلامي، كالذي ضربها سنة 276 هـ، وأشار بن أبي زرع إلى أنه من لطف الله لم يمت أحد فيه.

5.1.1. الحرائق: تتكرر نسبيا في المراعي والأحراش والغابات، وقد تحدث لأسباب طبيعية كتراكم النباتات المتساقطة فوق بعضها، فتتصلب وتتفاعل بشكل يؤدي إلى احتراقها، وتمتد منها النيران إلى الأشجار، وقد تكون لأسباب بشرية عن قصد أو عن غير قصد، مثل استعمال النار لصد الغزاة، أو تطويق منطقة محاصرة، ومن نتائجها الكارثية إتلاف المحاصيل الزراعية ونفوق الحيوانات وموت الناس حرقا، أو جوعا بسبب تلف المحاصيل والغلال.

6.1.1. الأوبئة والأمراض: لقد تعددت أسباب الكوارث الأوبئة والأمراض بين العوامل الطبيعية المتمثلة في تلوث المحيط والهواء وفساده، والعوامل البشرية المتعلقة بأكل الناس لأطعمة فاسدة لا تتلائم مع الاستهلاك البشري، خاصة أثناء أوقات الجفاف والمجاعة، ففي سنة 260 هـ/874م، ضرب الأندلس وباء كبير، تزامن مع غلاء الأسعار وقلة القوت، وهو ما يؤكده صاحب البيان حينما ذكر المجاعة العامة بالمشرق والمغرب والوباء والطاعون سنة 260هـ.

ويذكر بن أبي زرع صاحب روض القرطاس، أنه في سنة 407 هـ/1017 م، كان بالمغرب والأندلس وإفريقية قحط شديد ووباء كثير، وعلى الرغم من أن جل المصادر التاريخية لم تذكر أسباب هذا الوباء، لكنها أرخت له زمنيا، وفتحت أبواب الاحتمالات حول أسبابه، كلجوء الناس إلى أكل أطعمة غير صحية وغير مألوفة، أو ربما بفعل تحلل جثث الموتى، حيث أن شدة الجوع والصراع من أجل البقاء على قيد الحياة، جعل الناس يلجئون إلى تناول أغذية جديدة، ففي المناطق التي يكثر فيها الجراد، يأكلونه بعد طبخه، على ما في ذلك من خطورة على صحتهم.

2.1. المناطق المتأثرة بالكوارث الطبيعية في الغرب الإسلامي: تعرضت الأندلس وبلاد المغرب للوباء سنة 260 هـ، من بين المناطق التي كانت قد تعرضت للأوبئة بالمغرب الأقصى، نجد سبتة ومراكش وفاس. وفي منتصف القرن الثامن الهجري، شمل الطاعون الأسود بلاد الأقصى وإفريقية وحتى مصر.

وفي سنة 267 هـ/881 م، ضرب زلزال بلاد المغرب والأندلس، تهدمت منه القصور، وتساقطت منه الصخور والجبال، وهرب الناس من المدن إلى البراري، من شدة اضطراب

الأرض وتساقط سقوف الحيطان والدور، وشمل تأثيره من طنجة إلى تلمسان، وجميع بلاد الأندلس.

واستمر تأثر هذه المناطق بالكوارث الطبيعية حتى العصر الحديث، فيروي الفقيه الوزير أبو محمد الشرقي الذي صاحب أم السلطان عبد الله إلى الحج سنة 114هـ/1731م، أن القوافل تنظر بفاس أياما أملا في أن يقل هطول المطر، لأن مشكلة الوحل تعترض الراكب والماشي، وتمتلئ الوديان بالعشب بسرعة، مما ينتج فيضانات تمنع المرور لأيام عديدة، مما يضطر المسافر إلى الإقامة أيام عديدة في محطة معينة، وروي أحدهم محن الحجاج مع الأمطار والفيضانات سنة 1797م، لقوله: "ونزل علينا بالليل وابل".

3.1. نماذج من الحالات التاريخية الموثقة: يمكن ذكر بعض الحالات التاريخية الموثقة المتعلقة بالزلازل والفيضانات، ونوجزها فيما يلي:

– وباء الأندلس والمغرب سنة 260 هـ/874 م، والذي صحبه الغلاء وندرة الأقوات.

– وباء ومجاعة الأندلس وبلاد العدوة سنة 285 هـ/899 م، وأعقبها موت وأمراض، حيث اضطر الناس إلى أكل الجرذان والقوارض والأفاعي، وبقايا الحيوانات النافقة، مما أثر عليهم صحيا، نظر لما تحتويه من جراثيم وأمراض، وفي بعض الأحيان تحدث أوبئة قاتلة وفتاكة بعد كل مجاعة.

– وباء وطاعون مراكش سنة 571 هـ/1176 م، لم يعهد له مثيل، ومن شدته كان الرجل لا يخرج من بيته إلا بعد أن يكتب اسمه ونسبه في برأة يضعها في جيبه، حتى يتم التعرف عليه إن مات ليحمل إلى أهله، وتسبب في موت 1700 رجل.

– الطاعون الأسود الذي ضرب المغرب الأقصى بين 749–750 هـ / 1348–1349م، مات فيه الكثير من الناس وأثر على العمران، نظرا لانتقاص عدد السكان، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت المنازل والديار، فعند عودة ابن بطوطة من تونس إلى المغرب الأقصى، مرّ بعديد المدن بالمغرب الأوسط، مثل تنس ومازونة ومستغانم وتلمسان

والعباد، ولم يذكر أنها تعرضت للوباء، لكنه علم بوفاة أمه عندما وصل إلى مدينة تازا بالمغرب الأقصى.

كما توجد حالات تاريخية موثقة للفيضانات في بلاد المغرب الإسلامي، ومنها فيضانات وادي سبو بفاس، ونذكر منها:

– فيضانات في عهد السلطان إدريس الأول (القرن 8 م): وفي ميدان العمران قيل أن إدريس لما وصل إلى جبل زلاغ أعجب بارتفاعه وإشرافه على جميع الجهات، أمر قادته بالبناء في سند الجبل، فحفروا الآبار وغرسوا الزيتون والأشجار والكروم، وشرع في بناء المسجد والسور، وفي أحد الليالي هبط سيل عظيم من أعلى الجبل، فهدم جميع ما بنوه وأفسد جميع ما غرسوه، ورمي به في نهر سبو، كما مات الكثير من الناس.

– ويذكر أحمد القاضي المكناسي صاحب كتاب جذوة الاقتباس، أن الإمام إدريس خرج سنة 191 هـ/769 م، للصيد وللبحث عن موضع للبناء، ولما وصل إلى المكان المسمى حمة خولان بوادي سبو أعجب بالموضع لقربه من الماء، فبدأ في البناء لكنه تراجع لخوفه على الناس من الهلاك نظرا لما رآه من فيضان الوادي في الشتاء.

– وفي سنة 725 هـ/1303 م، فاض وادي فاس فهدم السور وجرف الشباك وخرب الجنان والبساتين، وهدم القناطر والديار، وخرب الدور، وسوق الصباغين وسوق الرصيف، وهدم القنطرة الكبيرة التي عليها سوق باب السلسلة، وهدم سوق الرميلة، وألف دار، وخمسة مساجد، وثمانية من الأرحاء، واثنين من الأفران، وأربعة وتسعون حانوتا، ومات فيه سبعمائة وثلاثين شخصا.

2. الانعكاسات العمرانية للكوارث الطبيعية واستراتيجية التكيف.

كان للكوارث الطبيعية تأثيرات عميقة على منطقة المغرب الإسلامي، من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويري ابن خلدون أن الضرائب تؤذن باختلال العمران، فالنظام

الضريبي طيلة الحقبتين الحفصية والزيرية، أدي إلى تراجع النشاط الفلاحي وقلة البضائع التي يتم نقلها من الأرياف والبوادي، إلى الحواضر والمدن، فأدي إلى ندرة السلع وحدوث مجاعات.

وكان للحوادث السياسية والمجاعات انعكاس مباشر على العمران في بلاد المغرب، وسنوجز بعضها كما يلي:

– هجوم بنو غانية على بجاية والمغرب الأوسط سنة 581–606 هـ/1185–1209 م، أدي إلى تخريب بعض المدن مثل تاهرت، ووقوع مجاعة ببجاية سنة 588 هـ/1192 م.

– حصار بنو غانية لقسنطينة سنة 588 هـ/1192 م، أدي إلى قع الماء عنها، واشتداد الحصار على أهلها.

– حصار بنو غانية لتلمسان سنة 605 هـ–1208 م، أدي إلى تخريب العمران ونهب الزروع.

1.2. تخطيط المدن في الغرب الإسلامي: ساد لدى بعض السلاطين في الغرب الإسلامي توظيفهم للمنجمين في الميدان العمراني وإيمانهم بهم، فقد اعتمد المرابطون على المنجمين والكهنة في بعض أعمالهم، فعندما شرع يوسف بن تاشفين في بناء مراكش تنبأ له المنجمون بأنه سيخوض حروبا كثيرة، فحاول الاستعانة ببعض السحرة لإخفاء مصادر المياه المجلوبة للمدينة عنهم، حتى لا يتم قطعها عنها.

ويبدو أن الموحدين هم من رسخوا هذه الثقافة للتنبؤ بالتأثيرات المناخية، فالخليفة يعقوب المنصور (580–595 هـ)، بنى برجا عاليا في المسجد الجامع بإشبيلية ليجعله مرصدا للنجوم والأوقات ومعرفة حركة الرياح والأمطار، حيث ربطوا التغيرات المناخية القصوى والمعتدلة بمساقط النجوم ومطالعها والاستدلال بها، فاعتقدوا بتأثير نجم سهيل في حدوث الفيضانات وموت الحيوانات وحلول الأمراض والأوبئة.

ودأب المرينيون من بعدهم في اختيار مواقع البناء بناء على تنبؤاتهم، فقربوهم منهم وأحاطوا أنفسهم بهم، لا سيما في بداية إنجاز بناياتهم الضخمة والفخمة، فعند الشروع في بناء

جامع مدينة فاس الجديد، تم اختيار ما يرضون ويحمدون سيرته، حتى لا يموت فيه خليفة، ولا تخرج منه إلا رايات النصر.

وقام السلطان أبو الحسن المريني بخطة استراتيجية عمرانية، من خلال تعمير طرق المسافرين انطلاقا من حضرته بفاس وصولا إلي تلمسان ومراكش وسبتة وغيرها من الرتيب، يأمر سكانها على مقدار 12 ميلا يسكنها أهل الوطن ويجري لهم إقطاعا من الأرض يعمرونها، حيث يلزمون فيها ببيع الشعير والطعام، وما يحتاج إليه المسافرين من الأدم على اختلاف أنواعها والمرافق التي يضطرون إليها وبهائمهم، ويحرسونهم ويحوطون أمتعتهم، فإن ضاع بينهم شيء تضمنوه، فلا يزال المسافر وكأنه في بيته وبين أهله، في ذهابه وإقباله.

وفي بعض الأحيان تؤثر الحروب والنزاعات على تخطيط المدن فتؤدي إلى تخريبها، مثل ما حدث لمدينة تاهرت عندما هاجمها بنو غانية كما سبق الإشارة إليه، لكن أهل بلاد المغرب كانوا يواجهون هذه الكوارث باتخاذ بعض الإجراءات والتزام سلوكات معينة، من خلال التضامن المجتمعي وإغاثة الفقراء والمساكين، واتخاذ تدابير عمرانية، فالفقهاء والمتصوفة بتلمسان، مثل أبو العباس أحمد بن مرزوق، كانت له مطامير من القمح والفحم والخليع والزيت، يفتحها ليتصدق منها للفقراء والمساكين.

2.2. الأنماط العمرانية ومواد وتقنيات البناء: استخدمت أنماط عمرانية ومواد بناء بعينها في هذا المجال، فبخصوص استعمال الحجارة الضخمة في العمران المائي، يذكر حسن الوزان أن ماء نهر أغمات الذي يصل إلى مراكش، يمر عبر قنوات تحت الأرض، وضعت بها كتل حجرية ضخمة ينكسر عليها الماء ليمر من هذه الجهة وتلك، كما وجدوا بها حفرا عميقة.

وأمام كثرة فترات الجفاف كان الناس بالمغرب الأقصى يشيدون مخازن لحفظ الأقوات، تساعدهم السلطة الحاكمة في ذلك، فصاحب الحلل الموشية يذكر أنه بعدما أسقط الموحدون مراكش، استولي عبد المؤمن على خزائن علي بن يوسف، وذخائر لمتونة مما يقصر على وصفه اللسان، واهتم الموحدون بالتخزين حتى فاق حجم الحبوب حجم المخازن المخصصة لها، وعلى نفس المنوال دأب المرينيون على تشييد المخازن لادخار الحبوب والأقوات.

فالظروف الصعبة والأزمات تجعل الإنسان يبحث عن أدوات للتكيف معها، فأهل تلمسان الذين تعودوا على مناخها البارد، الذي يؤثر على الزرع ويفسده، ويعسق نمو الخضر والفواكه ويتلفها، جعلهم يحرصون على تخزين مؤنهم في مطامير كثيرة، تحتوي عليها دورهم ومنازلهم.

3.2. دور البني العمرانية أثناء الكوارث الطبيعية: تتعرض البنى العمرانية في المدن للضرر بسبب الكوارث الطبيعية، فيتم إصلاح وتحصين وتعديل بعضها، أو حتى توظيفها للحد من تأثير هذه الأزمات، من المنشات المعمارية الصحية التي كانت تتوفر عليها تلمسان في عهد الزيانيين، يوجد بيمارستان أو مستشفى، به عدة غرف مخصصة للحمي والمجانين، ويعمل به حكماء وأطباء لمداواة المرضي.

توالت على الأندلس سنوات قحط عديدة، منها سنة 207 هـ/822 م في قرطبة عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، فخرجوا إلى صلاة الاستسقاء، وعبروا القنطرة المعروفة بالمدينة وهي قديمة البنيان، وصلي بهم الفقيه عبد الملك بن حبيب في مصلي الربض، وعند العودة تزاحم الناس على القنطرة ولم تتسع لمرورهم، فسقط عدد منهم في النهر وماتوا، ومنهم من عبروا بالقوارب لشدة الزحام.

وقامت بعض المدن القريبة من قرطبة كمدينة بطروش المعروفة بأشجار البلوط بتخزين البلوط وحفظه لاستخدامه أيام المجاعة، بينما كان أهل مدينة لورقة يخزنون المواد الغذائية تحت الأرض سنوات الرخاء، لأن تربتها تمتاز بحفظ المواد الغذائية حتى عشرون سنة، مما ساعدهم على مواجهة سنوات الجوع والقحط، وهذا ما يبين توظيف السكان للبنى العمرانية المتوفرة في مدنهم لحفظ وتخزين الغذاء، من أجل التغلب على الكوارث والأزمات.

وفي سنة 235 هـ/849 م، تعرضت مدينتي قرطبة وإشبيليا إلى ارتفاع منسوب نهر وادي الكبير بسبب الفيضانات، وحملت الروافد التي تصب في النهر مياه إضافية، مما تسبب في تدمير 16 قرية من قري إشبيلية، ودمر وادي تاجة في قرطبة 18 قرية، فضلا عن تدمير الطرق والقناطر المقامة على الأنهر، وتدمرت حنيتين من أقواس قنطرة أستجة، وغرق فيها

الكثير من الناس والبهائم، وكان ذلك حدثا عظيما تحدث عنه الناس لسنوات طويلة، وارتفاع مد نهر وادي الكبير في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (206–238 هـ/821–852 م)، فأمر ببناء الأرصفة على ضفاف النهر لمنع دخول المياه إلى أسواق المدينة وأزقتها.

المحاضرة (11): حروب وهجرات العرب الهلالية وأثرها على المدن.

تمهيد.

من أهم الأحداث التي عرفتها بلاد المغرب الإسلامي في القرن الحادي عشر الميلادي، هي الهجرات الهلالية، لأنها غيرت شكل المنطقة من جميع النواحي، ونجمت هذه الهجرات عن عدة عوامل تتعلق بتراجع الفاطميين وضعف الصنهاجيين، زيادة على أزمة الجفاف وانحصار الموارد في الجزيرة العربية، الاقتصادية، فاتبع الفاطميون خطة محكمة تؤدي إلى إبعاد خطر الهلاليين عن مقر خلافتهم في مصر، والانتقام من خصومهم الزيريين في إفريقية والمغرب الأوسط، لكن هذه الهجرات أدت إلى إعادة رسم ملامح البلاد وإعادة تشكيل قواعد النفوذ والسلطة والسيطرة على الجغرافيا والموارد.

1. السياق التاريخي للهجرة الهلالية.

الهجرة لغة هي الخروج من أرض إلى أرض أخري، وهي نوعان: الأولي هجرة طوعية تكون عادة بمبادرة فردية ودون ضغط أو إكراه إلى وطن جديد من أجل الأفضل، والثانية هجرة إجبارية (تهجير)، تفرضها قوة خارجية قسريا وإكراها، تخرج الإنسان من وطنه وتطرده أو تنقله بالقوة إلى أماكن بعيدة.

والهجرات الهلالية هي حركة هجرة قبائل عربية تنتمي إلى قبيلة بني هلال التي كانت تعيش في شبه الجزيرة العربية، وبدأت هذه الهجرات في القرن الحادي عشر الميلادي، نحو بلاد المغرب الإسلامي، وخاصة إلى ليبيا وتونس والجزائر، بإيعاز من الدولة الفاطمية في مصر لطرد البربر الذين كانوا يرفضون حكمهم، وأدت هذه الهجرات إلى تغيير التركيبة السكانية، ونشر اللغة العربية، وتركت أثرها في النسيج الاجتماعي واللغوي. وساهمت في تحديد هوية وثقافة المغرب الإسلامي.

1.1. السياق السياسي: يتمثل في ضعف الخلافة الفاطمية وانشغالها ببلاد الشام، وانهيار الدولة الصنهاجية، وموقف المعز بن باديس وتحوله من المذهب الشيعي الإسماعيلي إلى المذهب السني المالكي.

1.1.1. ضعف الخلافة الفاطمية وانشغالها بالشام: اهتم الفاطميون ببلاد الشام وأرادوا جعلها قاعدة دفاعية أولي تعزز استدامة سيطرتهم على مصر، لأنهم كانوا يرون أن وجودهم ونفوذهم بها مهدد، فسعوا إلى تعزيزه من خلال سلطانهم على الشام المتاخمة لحدود مصر، وكذلك درء خطر العباسيين، الذين كانوا يرون فيها خطر محتمل على المدي المتوسط والبعيد، فقد أرسل الفاطميون حملة عسكرية إلي فلسطين بقيادة محمد بن الصمصامة، لمحاربة بنو الجراح في أواخر القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، الذين كانوا يريدون إقامة دولة مستقلة عن الفاطميين، تمكن خلالها من استعادة الرملة، ولاحقت المفرج بن الجراح وقواته، مما اضطره لطلب الأمان والصلح، فاستجاب له بن الصمصامة.

2.1.1. انهيار الدولة الصنهاجية في إفريقية: لقد كانت العلاقة بين الفاطميين والزيريين تتميز بالتبعية عموما وبالتحالف المصلحي أحيانا أخري، فالزيريون كانوا يجارون الفاطميين إما تبعية أو تحالفا من أجل تعزيز دورهم في المغرب الإسلامي ضد خصومهم ومنافسيهم المحليين، لكن هذه العلاقة بدأت تتغير في أواخر الوجود الفاطمي بالمنطقة، فأصبح الزيريون يميلون نحو الاستقلال عنهم. فمن المعروف أن الدولة الفاطمية قد قامت بإفريقية سنة 296 هـ/909 م، وسقطت سنة 567 هـ/1171 م، في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (341-365 هـ/952-975 م)، حيث أرسل قائده جوهر الصقلي من إفريقية إلى مصر سنة 358 هـ/968 م، وتم قطع الخطبة عن الخليفة العباسي بعد ثلاثة أيم من وصوله إليها.

3.1.1. موقف المعز بن باديس والتحول المذهبي: عندما عزم الفاطميون الرحيل من بلاد المغرب إلى إفريقية، لم يولوا عليها قبيلة كتامة على الرغم من علاقتهم الوطيدة بها، لكن المعز لدين الله الفاطمي وقع اختياره على أحد قادة قبيلة صنهاجة القوية الأكثر انتشارا ونفوذا بالمنطقة، وهو بلكين بن زيري الصنهاجي، وأطلق يده على كل بلاد المغرب ماعدا طرابلس

وسرت وجدابية، لذلك فبلكين يعد مؤسس الدولة الزيرية في إفريقية سنة 361هـ/972م، وسار بلكين مع الخليفة المعز إلى غاية مدينة قابس، مستمعا لنصائحه وتوجيهاته، التي كان من بينها ألا يرفع السيف عن البربر، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية، ولا يولي أحدا من أهل بيته، فاتخذ بلكين القيروان عاصمة له، وسماه الخليفة المعز بيوسف وكناه بأبي الفتوح، ولقبه سيف الدولة. وهكذا تواصل حكم الصنهاجيين لبلاد المغرب.

وعندما توفي نصير الدولة باديس سنة 406 هـ/1015 م، خلفه ابنه المعز بن باديس، الملقب بشرف الدولة، وكان عمره سبع سنين وقيل ثمان سنين، ووصلت إليه الخلع والتقليد من الخليفة الفاطمي في مصر، واستمرت العلاقات الودية بين الفاطميين وال زيري في عهد المعز بن باديس، على الرغم من تحوله إلى المذهب السني المالكي، وإنهائه تعدد المذاهب في إفريقية، ويظهر أن هذه القرارات الجريئة كانت بإيعاز من حاشية أبيه، الذين لهم باع طويل في الحكم والسياسة.

2.1. السياق الاقتصادي: كانت بلاد المغرب قبيل قدوم الهلاليين تعاني من عدم الاستقرار بفعل الحروب والثورات، كثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد وغيرها، مما أدي إلى التراجع الاقتصادي، وذلك حتى لا يحمل الهلاليين وحدهم وزر هذا الوضع، وحتى بلاد الهلاليين في الجزيرة العربية أيضا كانت تعاني من أزمة ممتدة في قلة المراعي والقحط، والضغط السكاني على موارد أصبحت قليلة ومحدودة، بالإضافة إلى الإغراءات التي وعدهم بها الفاطميون في بلاد المغرب، من أراضي وغنائم، الأمر الذي شجعهم على الهجرة.

ويتفق الكثير من المؤرخين على أن هناك مبالغة في وصف التدمير الاقتصادي والخراب الذي ألحقه الهلاليون بإفريقية وخاصة بمدينة القيروان سنة 449 هـ، فاختفاء دولة بني زيري بالمغرب الأدنى، ودولة بني حماد في المغرب الأوسط، مكنهم من السيطرة على الطرق التجارية، كما أن انعدام الأمن أدي إلى تقلص الإنتاج الصناعي والزراعي، مما تسبب في انتشار الغلاء لفترة محدودة، وبعدها تغير الوضع فاشتهرت قفصة بالزراعة، وبلاد الزاب بتربية الإبل والبقر وزراعة النخيل، وبذل الهلاليون مجهودات لتوفير مياه السقي.

3.1. السياق القبلي: أذن الفاطميون للهلاليين بعبور النيل غربا نحو إفريقية، فوصلوا إلى برقة سنة 343هـ/1501م، فوصلوا برقة بأعداد كبيرة، حتى أن ابن خلدون وصفهم بالجراد المنتشر، ومرت هذه الهجرة على دفعتين، الأولي بإرغام من الفاطميين، والثانية طوعية قاموا بها ليشاركوا إخوانهم وأبناء عمومتهم الاستقرار في إفريقية، وكان المعز يتتبع أخبارهم ولم يتوقع منهم أن يشكلوا خطرا على ملكه.

يبدو أن بداية الهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب كانت سنة 457 هـ/1065 م، بعد عقد الأمير الحمادي الناصر بن علناس اتفاقية تحالف مع قبيلة الأثبج الهلالية بطلب منها، لمواجهة نفوذ قبيلة بني رياح الموالين لبني زيري، في حين وقف تميم بن المعز الزيري إلى جانب بني رياح، فأعطاهم عشرة الاف دينار والف درع ورمح، واتفقوا على لقاء الناصر بن علناس، وجري ذلك في معركة سبيبة سنة 457 هـ/1065 م، حيث انضم إلى جانب الناصر جماعات من العبيد من السدوان، ومن صنهاجة وزناتة، ومن العرب الهلاليين من عدي والأثبج، بينما انضم إلى معسكر تميم العديد من القبائل الهلالية من رياح وسليم، والأمير المغراوي ابن المعز بن زيري.

فهجمت رياح على بني هلال، والمعز على زناتة فانهزمت، وانهزم جيش الناصر، وبلغ عدد القتلى 24 ألف من صنهاجة وزناتة، ونتيجة انهزام الحماديين وقائدهم الناصر بن علناس، صار المغرب الأوسط مفتوحا، فاكتسحته قبائل الأعراب منطقة الزاب وسيطرت عليها، ففر الناصر بن علناس منهم وشرع في تأسيس مدينة بجاية سنة 460 هـ، خوفا من هجماتهم وتحصنا منهم. وهكذا دخلت هذه القبائل مسرح الأحداث في بلاد المغرب وصارت عنصرا مؤثرا فيه، وسنستعرض في العنصر الموالي، أهم مراحل العمل العسكري للغزو الهلالي.

أعطني اقتباسات من خمسة أسطر فما فوق، مع ذكر أرقام الصفحات التي أخذت منها هذه الاقتباسات، وذلك لهذا المحور وعناصره:

2. طبيعة الحروب والتحركات القبلية.

من الجدير بالملاحظة أن كل الدول التي قامت ببلاد المغرب قبل الدولة الفاطمية كان حكامها من المشرق، أما الدول التي قامت بعدها فكان حكامها من المغرب، فبعد قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب سنة 297 هـ، تمكنت من توحيده بعد انهيار الدول المستقلة، وكان لانتقال مركز الخلافة من المهدية إلى القاهرة سنة 362 هـ، تأثيرات كبيرة على مجري الأحداث السياسية والعسكرية بالمنطقة، وأول دولة قامت بعد انتقال الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى القاهرة كانت الدولة الصنهاجية، حيث عرفت خروج رابع حكامها المعز بن باديس عن الخلافة الفاطمية، مما تسبب في دخول الهلاليين بلاد المغرب.

1.2. مراحل التحرك العسكري: لم يكتف المعز بن باديس في مرحلة معينة بقطع العلاقات السياسية مع الفاطميين بل انفصل عنهم مذهبيا بتحوله من المذهب الإسماعيلي الشيعي إلى المذهب المالكي السني، واعترافه بالخلافة العباسية السنية، بتحريض من وزيره الحسن بن الرجال المعروف بالتدين والورع والزهد، واستنادا إلى موقف أهل المغرب وكراهيتهم للتشيع والمذهب الإسماعيلي، وتروي المصادر التاريخية تعرض الشيعة في إفريقية عموما وفي مدينة القيروان خصوصا، بعد هذا التحول للقتل والسلب والنهب من طرف العامة ومن عساكر عامل القيروان آنذاك. ورغم ذلك فقد استمرت العلاقة الودية بين الطرفين، وتخللها تبادل للهدايا الثمينة، رغم تعرض الشيعة للقتل والنهب في عموم إفريقية والقيروان بالخصوص.

لكن نقطة التحول في العلاقة بينهما كانت عندما جاهر المعز بن باديس سنة 433هـ أو 435هـ، بالدعوة للعباسيين، وأعلن الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله (422 هـ-466هـ)، وأرسل له الخليفة القائم الخلع والتقليد ببلاد إفريقية (المغرب الأدنى) وجميع ما يفتح، ولقبه "الإمام الأوحد ثقة الإسلام وشرف الإمام وعمدة الأنام"، "ناصر دين الله"، و"قاهر أعداء الله" و"ومؤيد سنة رسول الله صلي الله عليه وسلم"، أبي تميم المعز بن باديس، وأرسل إليه سيفا وفرسا وأعلاما. وقد حذا أهل صقلية وبرقة حذو المعز فخلعوا طاعة الفاطميين وطردوا ولاتهم، وملكوا عليهم المعز بن باديس.

ولم يبق للفاطميين بالقاهرة إلا مواجهة المعز بالقوة، ونظرا لظروفهم الداخلية وبعد المسافة، لم يكن في مقدورهم إرسال جيش لتأديب المعز بن باديس، ففكر اليازوري في أمر أقل تكلفة، وكان آنذاك قد عم ضرر بني هلال وبني سليم في مصر، فأشار على الخليفة المستنصر الفاطمي بإرسال هذه القبائل إلى إفريقية للقضاء على المعز، فإن هزموه أخذوا البلاد وصاروا عمالا لها، زال خطرهم عن مصر مقر الخلافة، وإن هزمهم فلها ما بعدها، وهكذا تقررت الغزوة الهلالية لبلاد المغرب، بعد موافقة الخليفة المستنصر. وهي خطة محكمة ضرب عصفورين بحجر واحد، القضاء على خطر قبائل الأعراب في مصر، والقضاء على خطر المعز بن باديس في بلاد المغرب.

1.1.2. المرحلة الأولى (1050-1052م): معركة حيدران ونهب القيروان: اختلفت المصادر في تاريخ الغزوة الهلالية لبلاد المغرب بالضبط، فتم تداول عدة سنوات: 440 هـ، و441 هـ، و442 هـ، و443 هـ، ولما كان الوزير اليازوري (تولي الوزارة سنة 442هـ) ، هو أول من أشار على الخليفة الفاطمي المستنصر بغزو الهلاليين للمغرب، فيرجح أن الغزو كان إما أواخر 442 هـ أو أوائل سنة 443 هـ، واختلف أيضا في أسماء القبائل الغازية، ويمكن أن نذكر أسماء القبائل والبطون، فبطون هلال وسليم هي: زغبة ورياح والأثبج وربيعة وعدي وظرود ولهب ورواحة وناصرة وذباب وعوف وزغب وهبيب وقرة والخلط وسفيان، وذكر ابن خلدون مشاركة قبائل عربية أخري غير بني هلال وسليم.

وصلت القبائل الهلالية إفريقية وأخذت تشن الغارات وتقطع الطرق وتفسد الزروع والثمار وتحاصر المدن، فتدهورت أحوال البلاد، وضاق الناس ذرعا بهم، وهنا كان لا بد للمعز بن باديس من التدخل، فواجههم عند جبل حيدران بظاهر القيروان ومعه 30 ألف فارس ومثلها رجاله، ووقف معه ابن عمه حماد بن بلكين أمير قلعة بني حماد بألف فارس، كما انضمت إليه زناتة وما تبقي من عرب الفتح، وعندما بدأت المعركة انحاز عرب الفتح إلى عرب بني هلال، وتخاذلت زناتة، أما الصنهاجيون قبيلة المعز، فاتفقوا على الهزيمة، وتركوا المعز مع

العبيد لأنه كانوا يفضلهم، حتي يقتل معظمهم وعند ذلك يدخلون المعركة ضد الهلاليين ويقدر المعز شجاعتهم، وبالفعل قتل عدد كبير من العبيد الذين ثبتوا مع المعز.

ولما أرادت صنهاجة التغلب على الهلاليين لم تتمكن من ذلك، وكانت محصلة هذه المعركة انهزام المعز في القيروان، وغنم الهلاليون ما في معسكره من مال وفير وخيول، وبعدها قام الهلاليون بنهب مضارب صنهاجة وغيرها من القبائل التي وقفت ضدهم، واستولوا على غنائم لا تحصي، وأسروا خلقا كثيرا من الصنهاجيين، ونزلوا بمصلي القيروان فتصدي لهم المعز للمرة الثالثة، فقتل عدد كبير من رجاله، مما اضطره ليبيح لهم دخول القيروان، وفرضوا حمايتهم على القري المجاورة لها أيضا.

2.1.2. المرحلة الثانية (1052-1057م): التمكين بإفريقية وسقوط القيروان والمهدية: ونظرا للضغط الذي شكلوه على المعز أراد التقرب منهم بمصاهرتهم، بثلاثة من بناته لثلاثة أمراء منهم، وهم فارس بن الغيث وأخوه عائذ والفضل بن أبي علي، وهم من بني مرداس الرياحيين، ومع ذلك واصل الهلاليون نشاطهم التخريبي بحصار ونهب المدن إلى غاية سنة 449 هـ، مما جعل المعز ينتقل إلى المهدية متخفيا في زي امرأة، مما جعل الأعراب ينهبون دوره وغلمانه وقصوره، وأرسل الكثير مما نهب من أسلحة وآلات وخيام إلى القاهرة.

وانتهي الأمر باستيلاء الهلاليين على إفريقية واقتسامها بينهم، وملكوا المدن والأرياض، وتركوا أمراء بني باديس في حاضرتهم، على أن يدفعوا لهم الإتاوات، وبذلك نجح الوزير اليازوري في الانتقام من الصنهاجيين، لكنه قتل سنة 450 هـ، واضطر المعز بن باديس لاسترضاء الخليفة المستنصر، فأرسل له سنة 452 هـ هدية قوامها 49 ألف دينار، منها ورقة مرصعة بالجوهر كانت للمهدي، لكن المعز مات بعدها في سنة 453 هـ أو 454 هـ، مع الأخذ بالاعتبار اختلاف المصادر في تاريخ وفاته.

3.1.2. المرحلة الثالثة (1057-1080م): التمدد نحو المغربين الأوسط والأقصى: بعدما فرض الهلاليون على إفريقية واستولوا على حواضرها ومدنها وأريافها، اتجهت أنظارهم نحو المغرب الأوسط، فاستقرار العديد من هذه القبائل شرق الجزائر الحالية أدي إلى نشوب نزاعات

مسلحة طويلة ومتقطعة مع الحماديين، مما أثر على الأمن والاستقرار داخل مجال الدولة الحمادية، حيث قاموا عدة مرات بمحاصرة مدينة بجاية، ورغم تمكن الحماديين من صد هجماتهم في عدة محاولات، إلا أنهم في الأخير رضخوا للأمر الواقع وصاروا يدفعون إتاوات للقبائل الهلالية كوسيلة للحفاظ على الهدوء النسبي، مما يوضح حالة الضعف والهشاشة التي وصلت إليها الدولة.

ومع مرور الوقت تقوضت سلطة الدولة لصالح القبائل الهلالية، وفرضت سيطرتها على مناطق واسعة، مما أدي إلى ظهور إمارات قبلية مستقلة تعتمد على القوة والولاءات القبلية، تتصارع على الموارد والنفوذ، مثل إمارة صفاقس على يد بني الرند من بني هلال سنة 451 هـ/1059م، وكانت هذه الإمارات تنافس الدول القائمة على السيطرة والنفوذ، وانتقلت سلطة الجباية من الدول إلى القبائل، فصارت تفرض إتاوات على السكان، مما زاد في الأعباء عليهم، وأسهم في تدهور الوضع المعيشي.

وهند صعود المرابطين في المغرب الأقصى وامتداد نفوذهم إلى المغرب الأوسط، دخلوا في صراع طويل معهم، لأنهم وجدوا مواجهة قوية من قبلهم، لأن هذه القبائل أرادت الحفاظ على استقلالها ونفوذها، وفي مرحلة لاحقة دخلت في تحالف مع الموحدين في صراعاتهم مه المرابطين والنورمان، مما أسهم في توطيد حكم الدولة الموحدية ببلاد المغرب الإسلامي، كما شارك عدد من أفراد قبائل بني هلال في الحملات المرابطية والموحدية إلى الأندلس، حيث ساهموا في تعزيز الوجود العربي هناك.

2.2. خصائص الغزو الهلالي: يمكن ملاحظة أبرز خصائص الغزو الهلالي من خلال ملاحظة سير المعرك، فقد امتازوا بالحرب السريعة الخاطفة، التي لا تسمح لخصومهم بالإعداد والاستعداد، معتمدين على عنصر المفاجأة، ومن الناحية الاقتصادية اتخذوا من النهب والسلب هدفا رئيسيا لحروبهم، ولم يكن هدفهم الاستيلاء على الأرض والاحتفاظ بها، لا سيما في بداياتهم الأولي، كما تميزت حروبهم بكثرة التحالفات القبلية وتغيرها حسب المصالح والولاءات مثلما جري مع المرابطون والبرامكة والزناتيين، وهذا ما يبين طابعهم غير النظامي، عكس

الجيوش الأخرى. ومن الناحية العسكرية تميزوا إجادتهم ركوب الخيل وسرعة التنقل بها، وبالتكيف مع الطبيعة القاسية ببلاد المغرب، لأنها مشابها لموطنهم الأصلي في الجزيرة العربية،

3. تأثير الهجرات الهلالية على المدن.

هناك عدة تأثيرات للهجرات لهلالية على بلاد المغرب، من بينها، التأثير العمراني، والتأثير الاجتماعي، والتأثير الاقتصادي.

1.3. التأثير العمراني: أشارت بعض المصادر إلى تدهور العمران في بعض المدن والقري بسبب الهجرات الهلالية، لأنها تعرضت للنهب والتخريب، لكن الاستقرار التدريجي لبعض القبائل أسهم في ظهور تجمعات سكنية، كما تحول بعض السكان للحياة البدوية، واستقر آخرون في المدن والقري. وتعرضت بعض المنشات المعمارية للتخريب خاصة في إفريقية والمغرب الأوسط.

2.3. التأثير الاجتماعي: كان للهجرات الهلالية تأثيرات كبيرة على النسيج الاجتماعي لبلاد المغرب، حيث أصبحت القبائل العربية لها تأثير اجتماعي وسياسي، وتغيرت العلاقة بين العرب والبربر، فشهدت بعض المناطق نزاعات وصراعات على الموارد والأراضي، بينما اندمجوا وتعايشوا في مناطق أخري، وأدي وصول القبائل العربية في مناطق أخري إلى نزوح السكان وخضوعهم لنفوذ القبائل العربية، وفي أماكن أخري وقع زواج واختلاط بينهم، فظهرت مجتمعات جديدة ذات هوية مختلطة، وطبقات اجتماعية جديدة مرتبطة بالولاءات القبلية.

3.3. التأثير الاقتصادي: أثر الغزو الهلالي في المدن والأرياف والقري بشكل متفاوت، فتسبب في تدهور الزراعة والتجارة في بعض المناطق، نتيجة الفوضى والنزاعات وتدمير البنية التحتية، لكنها نشطت في مناطق أخري، لأن القبائل كانت تملك قطعانا كثيرة من الماشية، فاستفادت من الأسواق لبيع منتجاتها، فتحركت حركة التبادل والنقل.

المحاضرة (12): حروب وهجرات الأندلسيين وأثرها على المدن.

تمهيد.

شهدت بلاد الأندلس حروبا وهجرات بسبب التحديات التي اعترضتها طيلة تاريخها الإسلامي الطويل، فالتغيرات التي عرفتها من أواخر عهود الخلافة الأموية نتيجة النزاعات مع الممالك الإسبانية، فتقاطعت فيها العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية لتشكل فيها مشاهد عمرانية متحولة أثرت على تخطيط المدن ليتكيف مع المتطلبات الوظيفية التي تمليها كل مرحلة معينة، وبالأخص في عمران المدن الحدودية التي تعرف بالثغور.

وفي ظل الواقع المضطرب التي فرضته الحروب والنزاعات ظهرت الهجرة لعامل اجتماعي للتكيف والصراع من أجل البقاء، خاصة بعد سقوط غرناطة وما صاحبها من تداعيات على كل الأصعدة، وبالتالي فهذه المحاضرة تأتي لتوضح تفاعلات الإنسان مع مجاله العمراني في سياق الأزمات السياسية والنزاعات، وتبيان دور الأندلسيين في عمليات الإعمار التي شهدتها العديد من الأقاليم سواء في الأندلس أو في بلاد المغرب الإسلامي.

1. الحروب في الأندلس وتأثيرها على العمران.

1.1. تأثيرها على عمران مدن الحدود (الثغور): اتسمت العلاقات بين الإمارات العربية والإسبانية أواخر الدولة الأموية بالكر والفر، بينهما، فكان كل منهما يحصن ويقوي خطوطه الدفاعية، فحصن العرب روافد نهر تاجة ونهر الإبرة، وبنى الأمير محمد بن عبد الرحمن مدينة مجريط (مدريد الحالية) وطلمنكة وحصن قلعة أيوب وأسكن فيها بني تجيب، ولمواجهة الإسبان بنى لهم حصن دروقة في الشمال، وشرعت إمارة جليقية في إعمار استرقة وليون وبرغش وإماية، والمناطق الواقعة جنوب نهر دويرة.

ومن مظاهر تأثير الحروب والنزاعات بالأندلس هو ظهور بعض العناصر المعمارية المستحدثة في عمران المدن الحدودية، التي تواجه أخطار الحملات الإسبانية، نجد القيام ببناء

أسوار مزدوجة ومرصدة، وتقسيم الأحياء بطريقة مرنة حسب النواحي الدفاعية الوظيفية، واستغلال الفراغات والمساحات لجعلها أماكن تجمع عسكرية أو مخازن للسلاح.

لقد وقع في الأندلس نوع من التكيف المعماري مع الحروب وما صاحبها من تغيرات، فأصبح تخطيط الأحياء يتميز بنوع من المرونة، وتم في عديد الحالات تحويل الفراغات العمرانية في المدن والقصبات إلى مخازن تستغل لدواعي أمنية، فبعض المصادر تطلعنا على توفير المؤن والأسلحة وتحصين القصبات أوقات الحصار، فظهرت أسماء ذات طابع عسكري لأحياء بكاملها تدل على الوظائف العسكرية المنشات العمرانية، مثل حي الصناع وحي الرماة وغيره.

2.1. سقوط الحواضر والمدن الكبرى: إن سقوط بعض المدن الكبرى أدي إلى تحويل جوامعها إلى كنائس وكاتدرائيات، فعندما سقطت بيت المقدس بيد الأوربيين سنة 492 هـ/1099 م، وصلت قوات أوربية إلى ملك أرغون بإسبانيا لمساعدته على استرداد أهم المدن الأندلسية، فاحتل ألفونسو المحارب مدينة تطيلة عام 511 هـ/1117 م، فانهار الخط الدفاعي لسرقسطة، وشدد عليها الحصار إلى أن دخلها مع حلفائه في السنة الموالية 512هـ/1118 م، وحول جامعها إلى كنيسة سميت "لاسيو Laseo)، وجعل المدينة عاصمة لمملكة أرغون، فأصبحت قواعد الثغور الأخرى مهددة من طرفه، ففي نفس السنة سيطر أيضا على مدينة روطة، ثم سقطت بيده مدينة طرسونة سنة 513 هـ/1120 م، وسيطر على مدينة أيوب.

وبعدما اتحدت مملكة قشتالة وأرغون سنة 884 هـ/1479 م، عقب زواج ملك قشتالة فرديناند الخامس من ملكة أرغون إيزابيلا، سنة 874 هـ، بدأوا يفاوضون أبي الحسن علي (868-887 هـ/1464-1482 م) سلطان غرناطة بشروط مجحفة وثقيلة رفضها، فهاجم فرديناند غرناطة واستولي على مدينة الحمة (الحامة) التي تقع جنوبها سنة 887 هـ/1482 م وأمعن في أهلها قتلا وتنكيلا، ثم زحف إلى لوشة وحاصرها، لكن أهلها ردو هذا الهجوم.

ولما تولي عبد الله الصغير الحكم في ولايته الأولي (887-888 هـ/1482-1483 م) انتصر في عدة معارك ضد فرديناند الخامس إلى أن أسر في معركة قلعة اللسانة، وتولي

والده الحكم بعده، وهكذا تواصل الصراع بينهم وبين ملك قشتالة، الذي بدأ يضرب المدن الأندلسية ويرهقها بالحصار، وكان يخرب ما حول مدينة غرناطة حتى يهيئ الظروف لدخولها، وبعد سقوط المدن والحصون الأندلسية لم يبق سوي غرناطة، فأرسل الإسبان إلى السلطان أبي عبد الله يطلبون منه تسليمها لكنه رفض، وفي سنة 897 هـ/1491 م، حاصروا المدينة وأقاموا حولها مخيما سمي فيما بعد سانتا في أي الإيمان المقدس، ودام الحصار سبعة أشهر وفي أواخر سنة 897 هـ/1491 م، وبعد اشتداد الجوع والأمراض اتفق أعيان المدينة على تسليمها، وقام الإسبان بتحويل جامع غرناطة إلى كنيسة، وحول مسجد البيازين إلى كنيسة ومدرسة، سميت كنيسة المخلص، وبفعل الحرب انحصرت الأحياء التجارية بسبب الركود، وتحولت العديد منها إلى أحياء سكنية.

ويبدو أن الحروب والفتن التي سادت الأندلس في فترة ملوك الطوائف، أثنت الحكام عن محاكمة وملاحقة الفلاسفة، فبيعت المكتبات العامة والخاصة، التي كانت تزين قصور قرطبة بأثمان بخسة، فقرأ منها الناس بعض مؤلفات الفلاسفة.

3.1. نموذج غرناطة.

1.3.1. تحويل القصبة والحمراء لمراكز قيادة عسكرية: بعد الصراعات في بلاد المغرب هاجر زاوي بن مناد في بداية القرن 11 ميلادي إلى الأندلس وأسس دويلة غرناطة سنة 403هـ، وأدار شؤونها لسبعة سنوات، دخل خلالها في صراع مع الخليفة المرتضي فهزمه، لكنه غادر الأندلس وترك الحكم لابن أخيه حبوس بن ماكسن سنة 411 هـ، فاهتم بعمارة غرناطة وتسعت رقعة الدويلة في عهده وسيطر على مدينتي قبرة وجيان، ولما توفي سنة 428 هـ خلفه ابنه باديس بن حبوس، ودخل في حرب مع زهير العامري صاحب ألمرية فهزمه واستولي على أملاكه المتاخمة لغرناطة منها مدينة جيان وأعمالها، وقسما من أراضي كورة قرطبة الجنوبية.

وعندما حاول بنو عباد غزو مدينة قرمونة، تمكنت قوات باديس من هزيمتهم وقتل قائدهم إسماعيل بن عباد قرب أستجة سنة 431 هـ/1039 م، وظل بنو مناد الصنهاجيون

وبنو عباد في صراع على النفوذ، واستمر الصراع بينهم سجالا لسنوات أخري، ومع طول حكم باديس بن حبوس، أصبحت غرناطة في عهده أقوي الدويلات القائمة آنذاك، وكانت مسؤولة عن حماية الإمارات البربرية، وفي الميدان العمراني قام باديس بتحصين غرناطة حتي صارت أقوي قواعد الأندلس الجنوبية، وأنشأ بها قصبة على أنقاض قلعتها القديمة، وسميت باسمها القديم "القلعة الحمراء"، وأنشأ لها جيشا قويا من قبيلة صنهاجة، ونظم عمالات الدولة ووطد أركانها.

2.3.1. دور الشبكة المائية في الحصار: لا شك أن مقاومة غرناطة للممالك الإسبانية إلى آخر رمق، كان له أسبابه المتعددة التي أمدتها بالقوة والصلابة وطول النفس، باعتبارها آخر معاقل المسلمين الذي سقط في أيدي النصارى، ومن بين هذه الأسباب والعوامل هي تطور الزراعة وكفايتها سكانها. فقد ازدهرت بفضل طبيعة الأرض الخصبة، ووفرة المصادر المائية كالأنهار والوديان، والاهتمام بقنوات الري لتوصيل المياه وتوزيعها، فاشتهرا غرناطة بعيد الكروم، وبالزيتون والبرتقال والحبوب بأنواعها.

3.3.1. الهجرة كاستراتيجية للهروب من الاضطهاد: بعد سقوط غرناطة نقض الملكان فرديناند وإيزابيلا العهود والمواثيق التي اتفقوا عليها مع المسلمين قبل تسليم غرناطة، فشكلا محاكم التفتيش لملاحقة المسلمين، وظهر ما يسمي بالمورسكيون Los Moriscos أي المسلمون الصغار الذي أبطنوا إسلامهم خوفا من انتقام النصارى، وبقوا يقاومون الاضطهاد أكثر من قرن.

فبعد تسليمه مدينة غرناطة سنة 1492 م رحل السلطان أبي عبد الله الصغير إلى عدوة المغرب، بدأ مسلمو الأندلس بالهجرة إلى المغرب كما نصت عليه المادة السابعة من المعاهدة، التي تلزم الملكين الإسبانيين بتوفير السفن مجانا لنقلهم إلى المغرب، وبعدها يدفع من يريد العبور دوبلا واحدا عن كل شخص، (الدوبل عملة ذهبية إسبانية تساوي عشر بزيتات)، وكان أهل ملقة أول من هاجر، حيث نزحوا إلى مدينة باديس شمال المغرب، اندثرت ويقع مقابلها جزيرة صغيرة تحمل اسمها.

ونزل أهل المرية بمدينة تلمسان، وأهل الجزيرة الخضراء في طنجة، وأهل رندة وبسطة وحصن مرتيل في تطوان وأحوازها، وأهل دانية إلى تونس والقيروان والجزائر، وأهل لوشة ورشانة وبعض سكان غرناطة، في مضارب قبيلة غمارة، وأهل برجة وأندرش ما بين طنجة وتطوان، وأهل شريش ويليش مدينة سلا، وخرج ما بقي من سكان غرناطة إلى بجاية ووهران وسوسة وصفاقس وقابس، وأهل القلعة إلى أغادير، واستقر آخرون في المشرق العربي كالإسكندرية.

ومن بين الأساليب التي اتبعتها الملكة إيزابيلا من أجل التنصير القسري للمسلمين، هي الاعتماد على الرهبان والأحبار ومنحهم مناصب في البلاط الملكي، وكان من أخبثهم وأخطرهم الأب خمنيس مطران طليطلة، وكان من نتائج سياسته التعسفية قيام عدة ثورات ضده، أهمها ثورة البيازين في غرناطة سنة 904 هـ/1499 م، عندما اعتدي أحد رجال الشرطة وخادم للأب خمنيس على فتاة مسلمة في حي البيازنين، حيث هاجم الناس المعتدين على الفتاة، ففر الخادم وقبضوا على الشرطي وقتلوه، ثم سارت الجموع إلى دار الأب خمنيس قرب قصر الحمراء للقضاء عليه، وأغلقوا الطرقات فاستنجدت السلطات بمطران غرناطة الكونت دي دنديا، لأنه كان يحظى باحترام الموريسكيين لتهدئة الوضع.

2. الهجرات الأندلسية وتأثيرها على المدن المغربي.

لقد اجتمعت العديد من الأسباب والعوامل التي أدت إلى هجرة الموريسكيين خارج إسبانيا وبالخصوص إلى بلاد المغرب الإسلامي، كالقرب الجغرافي باعتبار إقليم المغرب مشابه في الكثير من المجالات للأندلس، والاتحاد بين مملكتي قشتالة وأرغون بعد مدة من النزاعات والحروب، كما كان لاستمرار الحروب الصليبية على المسلمين دور كبير فيها. ويمكن التمييز بين نمطين هامين من هذه الهجرات، هما الهجرة القسرية والهجرة الطوعية، وكان لهما تأثير كبير على مختلف نواحي الحياة في المدن المغاربية.

ويمكن تقسيم الهجرات الأندلسية إلى مرحلتين، مرحلة أولي قبل سقوط غرناطة، ومرحلة ثانية بعد سقوط غرناطة، ففي المرحلة الأولي وقعت انتفاضة أهل ربض قرطبة على الحكم

الربضي بن هشام، حين أحرق جنوده أحيائهم وأنذرهم بترك الأندلس خلال ثلاثة أيام، كما بدأت موجات الأندلسيين تصل بكثافة إلى بلاد المغرب بعد تساقط المدن الأندلسية في يد النصارى، كسقوط قرطبة سنة 633 هـ/1235 م، وبلنسية سنة 636 هـ/1238 م، ومرسيه سنة 666 هـ/1266 م، ووصلوا شمال إفريقيا في فاس وتلمسان ووهران وتونس، وفي المرحلة الثانية بعد سقوط غرناطة، عبر أهل ملقة البحر إلى مدينة باديس بالمغرب الأقصى، وعبر أهل ألمرية إلى تلمسان، وعبر أهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة، وعبر أهل رندة وبسطة وحصن موجر وقرية قردوش وحصن مرتيل إلى تطوان وأحوازها، وهكذا تتابعت على مراحل أخرى.

1.2. أنماط الهجرة: تمثلت في الهجرة القسرية والهجرة الطوعية.

1.1.2. الهجرة القسرية: (سقوط غرناطة): لقد كانت دولة بني نصر (أو بني الأحمر) في غرناطة (629-897 هـ/1232-1492م)، آخر فصول الحكم الإسلامي في الأندلس، وتحمل ملايين المسلمين بعد ذلك الكثير من عمليات التصفية والإفناء والاضطهاد، وعرفوا تاريخيا بالموريسكيين أو المواركة، فرغم ما نصت عليه معاهدة التسليم من حقوق للمسلمين في غرناطة وبقية مدن الأندلس، كالحقوق الدينية كأن يحتفظوا بمساجدهم، وأن تترك لهم الحرية في البقاء أو المغادرة.

لكن الإسبان تجاهلوا كل ذلك بعد استيلائهم على المدينة، فحولوا مسجدها إلى كنيسة وشرعوا في التنكيل بالمسلمين، وأجبروا الكثير منهم على التنصير، وسقطت بنود المعاهدة واحدا تلو الآخر، وأريد لهم أن يكونوا نصاري رغما عنهم، فاتبعوا في سبيل ذلك كل أنواع العنف والقسوة ضدهم، لكن غالبية المسلمين رفضت ذلك فوقعت في صدام مع السلطة الدينية والمدنية، واستخدمت معهم محاكم التفتيش كل الحيل من اعتقال وحرق وتشريد وتعذيب، وحتي وسائل التبشير والإغراء، لكن المسلمين ظلوا على موقفهم في ممارسة شعائرهم الدينية سرا وعلانية، مما دفع الإسبان إلى قرار الطرد النهائي للمسلمين خارج كل إسبانيا، وتمت هذه

العملية في الفترة من 1609 إلى 1614 م، دون مراعاة لظروف ومشاعر هذه الفئة الواسعة من المجتمع الإسباني، وبذلك انتهت قصة المسلمين في شبه الجزيرة الإسبانية.

2.1.2. الهجرة الطوعية: تمثلت أساسا في فرار العلماء والتجار وأصحاب الصنائع والحرف من اضطهاد الإسبان وبطش محاكم التفتيش الغير إنسانية.

2.2. الأقاليم المستقبلة للمهاجرين الأندلسيين: لقد كان لبلدان المغرب الإسلامي النصيب الأكبر من المهاجرين الأندلسيين، نظرا لقرب المسافة وتوفر وسائل النقل البحري والموانئ، ووحدة النسب والدين والتاريخ المشترك وغيرها من الروابط.

1.2.2. المغرب الأقصى: لعل أولي الهجرات كانت في عهد الموحدين، أيام الخليفة عبد الواحد الرشيدي الموحدي، بموجب ظهير مؤرخ في 11 شعبان سنة 636 هـ/1240 م، وكان مصدرها بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة، أما بعد سقوط غرناطة سنة 1492 م، فوصلت هجرات إلى قصبة سلا، فأصبحت بعد ذلك تعرف بالقصبة الأندلسية، وبين سنتي 1609 م و1614 م، ازدحمت مدينة الرباط بالموريسكيين والهوناتشيين (المسلمون الذين بقوا في الأندلس قبل إجبارهم على التنصر) الذين جاؤوا من قشتالة، وتعايشوا مع المعاربة في مدن أخري كتطوان والرباط وسلا وفاس، وكانت لهم مساهمات في الجيش والجهاد البحري ضد النصارى، وشيدوا بمدينة سلا القصور والحمامات والدور السكنية وحصنوها.

وحسب المصادر الإسبانية فإن العدد الإجمالي للمهاجرين الأندلسيين الذين وصلوا المغرب الأقصى، بلغ حوالي 40 ألف استقر أغلبهم في على مشارف سبتة وتطوان والموانئ القريبة من جبل طارق، لكن المصادر الموريسكية تقدره بحوالي 60 ألف مهاجر.

وتذكر المصادر التاريخية أنه بفضل الأندلسيين مدينة فاس مركزا صناعيا وحضاريا كبيرا، حيث برزت صناعة الحديد والنحاس والآلات الصفراء، ونفس الأمر عرفته صناعة المنسوجات الرفيعة كالعباءة الفاسية التي تحاكي الألبسة الغرناطية، إلى جانب تطور دباغة الجلود، وانتقلت إليها تقنيات الزخرفة على الجص والزليج الأندلسي والنحت الخشبي، التي

استفادت منها المساجد والقصور، كما أعادوا بناء أحياء وأسوار تطوان وتجديدها بطابع أندلسي، ونقلوا إليها الحرف اليدوية كالتطريز والفخار المزجج.

2.2.2. المغرب الأوسط (الجزائر): كان للمهاجرين الأندلسيين دور في منطقة بني جدليداس بالقرب من تنس، وفي مدينة المسيلة أوائل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، واستروا أيضا في مرسي أرزيو، وفي القرن 15 الميلادي سكنوا بلدة المرسى الكبير فأصبحت من أهم مراكز القرصنة ضد الأعداء المسيحيين، ووصل عدد الموريسكيين في مدينة الجزائر حوالي 25 ألف فرد، ووصلت مجموعات من بلنسية وأماكن أخري في الأندلس، إلى سواحل الجزائر ووهران، وفي منتصف القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، نزلت جالية كبيرة من الأندلس في تلمسان عاصمة الزيانيين، وكان معظم الموريسكيين الذي استقروا بدار السلطان بمدينة الجزائر، من الفلاحين والتجار والصناع وأصحاب المهن.

ومن الناحية العمرانية قام المهاجرون الأندلسيون بتجديد وتعمير مدينة وهران وأعادوا إعمار مدينة تنس أواخر القرن 15 م، وقصد الغرناطيون مدينة شرشال وأعادوا بناء دورها وجددوا قلعتها، وزرعوا أراضيها، وصنعوا سفنها، وعملوا في ميدان صناعة الحرير نظرا لكثرة أشجار التوت الأبيض والأسود بها، ويعتقد أن أعداد المهاجرين الأندلسيين الذي وصلوا بلاد المغرب الأوسط أعلى بكثير من التقديرات المتداولة.

3.2.2. المغرب الأدنى (تونس): لقد ارتبط مجيء الأندلسيين إلى المغرب الأدنى (إفريقية) بتأسيس الدولة الحفصية، فأبو زكريا مؤسس الأسرة الحاكمة كان واليا على إشبيلية، ولما انتزع فرديناند الثالث المدينة سنة 646 هـ/1248 م، هاجرت أعداد كبيرة منها إلى تونس، فوجدوا الترحاب وحسن الضيافة ووفرت لهم البيئة المناسبة لممارسة نشاطاتهم، وتجدر الإشارة إلى أن الكثير من الأندلسيين كانوا مقيمين بتونس منذ القرن 13 الميلادي، وازدادت الهجرات بعد سقوط غرناطة سنة 1492 م، إلى بعض المدن كصفاقس وحبيس وسوسة، وفي العهد العثماني سمح لهم الداي عثمان ببناء نحو عشرين قرية في مملكته، وتعلم منهم أهل الحضرة الحرف وقلدوا ترفهم، وذكر أنه في سنة 1609 م وصل حوالي 80 ألف مهاجر أندلسي إلى تونس،

حيث أسسوا مدينة تستور جنوب غرب تونس العاصمة، والتي تعتبر مدينة الموشحات والمالوف التونسي.

3.2. تأثير الهجرات الأندلسية على مدن بلاد المغرب: لقد شمل هذا التأثير عدة نواحي، لعل أهمها النواحي العمرانية والاقتصادية والثقافية.

1.3.2. من الناحية العمرانية: نقل الأندلسيون تجربتهم العمرانية والمعمارية الغنية من الأندلس إلى مدن بلاد المغرب الإسلامي، فدعموا الخصوصية المستمدة من الدين الإسلامي في تنظيم الأحياء السكنية من خلال استحداث أحياء مغلقة الدروب تمتاز ببوابات وأبواب داخلية خاصة، وجعل الفناءات أو الساحات الداخلية للبيوت كمركز للحياة العائلية.

2.3.2. من الناحية الاقتصادية: طوروا الزراعة بمختلف أنواعها ونقلوا تقنيات الري لسقي مساحات واسعة من الأراضي، فظهر ذلك في العديد من المدن الشمالية كالجزائر وفاس وتطوان وغيرها، أما في الصناعة فقد أبدعوا في الزليج والخزف المزجج والنحاس والحرير وغيره.

3.3.2. من الناحية الثقافية: ظهر أدب المهجر الأندلسي فكتب الشعراء مرثيات كثيرة في الأندلس الفردوس المفقود، كابن الخطيب وابن زمرك وغيرهم، وازدهر الغناء الأندلسي بمختلف طبوعه ومقاماته، والذي مازال بعضه مستمرا إلى اليوم.

المحاضرة (13): العمران والديموغرافيا في المغرب الأوسط.

تمهيد.

يعتبر العمران في بلاد المغرب الأوسط، معيارا حقيقيا للوقوف على التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفها المجتمع آنذاك، فقد شهدت البلاد ابتداء من القرن الثاني الهجري الموافق للقرن الثامن الميلادي حركة عمرانية سريعة، حولت المدن إلى مراكز حضارية وتجارية مع ما يحيط بها من استيطان ريفي وبدوي مكمل لها، وهذا التطور العمراني كان ارتدادا لسياق الحركية التجارية والهجرات والتبادل مع العالم الإسلامي المحيط بالمغرب الأوسط.

كما أن ترابط الأنماط المعيشية بين المدن والأرياف، أعطي للعمران صفة التنوع والتركيب، وهذا ما يبرز أهمية العمران ليس كبناء مادي فحسب بل كنتاج لعدة عوامل، وعليه فإن دراسة الديموغرافيا ضروريا لتفسير الصورة العمرانية وتغيراتها.

1.العمران وتطوره.

ابتداء من القرن 2 الهجري الموافق للقرن 8 الميلادي عرف العالم الإسلامي نهوض عمراني كبير، ظهرت عليه الصبغة المدنية، واهتم الرحالة والجغرافيون بالمدن الإسلامية الكبرى، باعتبارها مراكز عمرانية تتبعها العديد من الأرياف والقري، تحتوي مختلف أنشطة المسلمين الحياتية، مما أسهم في تعزيز مكانة البلاد الإسلامية، فالمقدسي يعتبر المدن كالجند والقري كالرجال، تستوعب السكان بما تحتويه من أسباب العيش وبما توفره من خيرات، وكان هؤلاء الجغرافيون يدركون التفاوت في أهمية المدن، سواء من حيث الموقع والمساحة أو من حيث القيمة العمرانية، أو من حيث الظروف السياسية والاقتصادية التي مرت بها، فميزوا بين المدن الصغيرة والكبيرة، والوسطي والواسعة.

1.1. مكونات الأماكن وأنماطها العمرانية: يستعرض هذا العنصر المدن كمراكز للتبادل، والاستيطان الريفي، والترحال في البوادي.

1.1.1. المدن كمراكز للتبادل: كانت المدن الإسلامية تعتبر مراكز للقوة ومحطات للتبادل بمختلف أشكاله. فإذا أخذنا الأرباض كمعيار لهذه الميزة، نجد أنها كانت تحيط بالمدن العربية الإسلامية تجسيدا لأبعاد عمرانية واجتماعية وعسكرية وأمنية، وارتبطت بالسور الذي يحيط بالمدينة، مما جعلها محدودة في مساحتها، مما نتج عنه امتدادات عمرانية خارج أسوار المدينة، ومما يجعلنا نعتبرها نمطا متكررا من المدينة الأصلية، نظرا لظهور أرباض محصنة بأسوار، وعليه فالأسوار بالمدن الإسلامية تمثل جانبا من تاريخها السياسي والعسكري، زيادة على الجوانب العمرانية والاجتماعية الخفية.

2.1.1. الاستيطان الريفي: من المعروف أن لكل مدينة مجالها الريفي الذي يرتبط بها اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، وله جوانب وظيفية معروفة ومتشابهة وإن اختلفت التسميات التي أطلقت عليه. فهناك عدة تسميات تمثل كل واحدة منها مجالا عمرانيا، له عدة أوجه في العلاقة مع المدينة الأم، منها العمرانية والإدارية والجبائية والاقتصادية والاجتماعية، لتكون المحصلة صورة متكاملة للمشهد المحيط بالمدينة، ومن أبرز المصطلحات التي أطلقت على هذا الحيز المحيط بالمدينة الإسلامية، نجد: الربض والحاضرة والضاحية والحوز والناحية والفحص.

3.1.1. الترحال في البوادي: كان في الكثير من مدن المغرب الأوسط يمنع التعمير خارج أسوارها، ربما لكثرة الصراعات والتبعية السياسية، وتشير بعض الوثائق إلى قلة المراكز الحضرية في بلاد المغرب الأوسط لأن السكان كان يغلب عليهم طابع حياة البداوة والترحال، لذلك لم يكن هناك عمران كبير خارج أسوار المدن ماعدا القليل منها، أو في نطاق ضيق، وعلى شكل ضيعات زراعية، وبساتين فلاحية ومنزهات وملاعب لسباق الخيل والفروسية.

2.1. التطور العمراني والعوامل المؤثرة فيه: تداخلت عدة عوامل في التطور العمراني الذي شهده المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة، فمنها السياسي والاقتصادي والبيئي والعسكري.

1.2.1. العامل السياسي: كان بعض الحكام بالمغرب الأوسط يشجعون عامة الناس على المشاركة في تعمير المدن، ويمهدون لها باختيار المواضع الصالحة للبناء وفق معايير ومواصفات معينة، تشجع العامة على الإقبال والمشاركة في عملية الإعمار، وبعدها تبدأ عملية

الإنشاء والتعمير، وتوضع كل قبيلة في مكان واحد، مما يدفعها إلى بذل طاقتها لإعمار موضعها بما يتناسب مع منزلتها، مما يؤدي إلى إعمار الخطة بطريقة متكاملة من جهة، وإلى منافسة خطط القبائل الأخرى من جهة أخري، فازداد عمران المدن وتعددت أرباضه.

2.2.1. العامل الاقتصادي: يبدو أن هناك صلة وثيقة بين الأغنياء في المدن بالأراضي الزراعية الموجودة في الأرباض، على شكل ضيعات زراعية وبساتين فلاحية، ومنتزهات وميادين وملاعب للفروسية وسباق الخيل، فقد وجد بتلمسان على أيام بني عبد الواد عدة أرباض يسكنها تلمسانيين يشتغلون بالحقول والبساتين وفلاحة الأرض، وكانت للعديد من الأسر التلمسانية دور سكنية في الضواحي والأرباض، يترددون عليها حينا وعلى المدينة أحيانا أخري، خاصة في مواسم البذر والحصاد، وكانت هذه الأرباض تزود المدينة بمختلف أنواع الحبوب والخضر والفواكه، كعائلة آل مرزوق التي كانت تمتلك حقول زراعية بمنطقة العباد.

3.2.1. العامل البيئي: تتوسع المدينة حول فضاءات واسعة تمتد حولها، جزء منها يتوسع فيه عمران المدينة والباقي يخصص لاستعمالات مكملة لها، مثل المقابر وأماكن لصلاة العيدين، وأراضي بور، وحدائق وفضاءات أخري للنزهة والتسلية واللهو، بالإضافة إلى المواقع السهلية الغنية بمصادر المياه كالعيون، والأراضي الخصبة المكملة لمعيشتها واقتصادها، فمدينة قسنطينة تقع على جبل شاهق ومحاطة من جهة الجنوب بصخور عالية يمر عند سفحها نهر يسمي وادي الرمال، والضفة الأخرى محاطة أيضا بصخور، بحيث يستعمل الوادي السحيق الواسع بين هذين الجرفين كخندق للمدينة نظراً لحجمها الكبير، ولها موارد كثيرة.

4.2.1. العامل العسكري: يتجلى في تحصين المدينة خارج أسوارها من خلال أبراج وحصون وقلاع وأربطة، لحمايتها من الغزو الخارجي، وتختلف الإجراءات الدفاعية من مدينة إلى أخري حسب موقعها الجغرافي وموضعها الطوبوغرافي، ومن الجدير بالملاحظة أن المدينة الإسلامية لم تتضمن بداخلها بعض المرافق التي تحتاج إلى مساحات واسعة، والتي لا يحدث أي ضرر بوجودها خارج الأسوار أو بالبوابات الخارجية، كمصليات العيدين، والمقابر والأسواق وميادين استعراض الجند.

3.1. التحولات العمرانية ومراحلها التاريخية: مرت التحولات العمرانية في المغرب الأوسط بثلاث عصور، هي كما يلي:

1.3.1. العصر الوسيط المبكر (القرن 7-10 م): عرف هذا العصر تأسيس المدن والاستيطان الريفي.

1.1.3.1. تأسيس مدينة تيهرت (الرستمية): تيهرت مدينتان: القديمة وقد اعتنى بها ملوك البربر قبل الرومان، والحديثة التي أسسها عبد الرحمن بن رستم سنة 143 هـ — 765 م، وذكرها ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك بأن تيهرت مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة والأخرى محدثة، وقد اختار لها عبد الرحمن بن رستم موقعا يجمع بين الصحة والاطمئنان والرخاء، وهي تقع في موضع مرتفع حصين به عيون عذبة تكفي لشرب المدينة، وتتميز باديتها بالخصوبة الزراعية، وفيها نهر مينة الذي يسقي مزارعها، وأقيمت عيه عليه أرحية لطحن الحبوب، وكونها تتوسط الشمال والجنوب والساحل والصحراء، جعلها ملتقي تجاريا بين بلاد المغرب الأوسط، وبلاد السودان، والمغرب الأقصى، والأندلس وإفريقية (زاوية، 2019، صفحة 170).

2.1.3.1. تأسيس مدينة آشير: عندما استولي الفاطميون على الحكم في إفريقية، انحاز إليهم زيري بن مناد الصنهاجي، وساعدهم ضد محمد بن أبي الخزر، ولما صار له أتباع كثر طلبوا منه أن يتخذ بلدا يجمع شملهم، فأراد أن يبني لهم قاعدة يتحصنون بها، فوقع الاختيار على موقع أشير نظرا لحصانته وتوفر المصادر المائية فيه، في أعلى قمة بالجبل الأخضر الذي يبلغ ارتفاعه حوالي 1400م على مستوي سطح البحر، وذلك سنة 324 هـ/935 م، لتكون المدينة الجديدة مقرا لحكمه ويدير منا شؤون أتباعه.

أحضر لها البنائين من المسيلة وطبنة وسوق حمزة، وأرسل إليه الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله مهندسا من أبرع المهندسين في إفريقية، نظرا لمكانته وللتقدير الذي يحظى به عنده (الطمار، 2010، صفحة 25). فعمرها ونقل إليها السكان من الأقاليم المجاورة، فاتسعت خطتها واستبحر عمرانها وجاء إليها العلماء والتجار من البلدان البعيدة، واشتهرت بكثرة علمائها

وفقهائها وتجارها، وكان سكانها لا يتعاملون بالذهب والفضة، بل بالمقايضة، مما دفع زيري إلى ضرب السكة، حتى أصبحت الدنانير والدراهم متوفرة عند سكانها. ولما تفرغ زيري من بناء وتعمير عاصمته أشير، التفت إلى إحياء وتجديد وبناء مدن أخري يدعم بها مملكته، فأمر ابنه يوسف بلكين بتجديد جزائر بني مزغنة، والمدية وملیانة.

2.3.1. عصر الإمارات (القرن 11-12 م): تميزت هذا العصر بتزايد التحصين وتعدد المراكز العمرانية في مختلف أنحاء المغرب الأوسط.

1.2.3.1. تأسيس قلعة بني حماد: بينما كان المعز بن باديس في إفريقية يسعى إلى ما يضمن لملكه الأمن والاستقرار والرخاء الاقتصادي، كان حماد في المغرب الأوسط يعمل هو الآخر لتوطيد أركان دولته الفتية وإعلاء شأنها، فاستقل سنة 387 هـ في عهد باديس بن المنصور واتخذ أشير عاصمة له. فأراد أن يؤسس عاصمة جديدة تضاهي القيروان والمهدية وتنافسهما. فاختار لها موقعا استراتيجيا هاما بجبل كيانة (المعروف حاليا بجبل المعاضيد) بكتامة، وعلى مقربة من ميناء بجاية ومن المسيلة التي كانت على ملتقى طرق القوافل الآتية من بلاد السود والذاهبة إلى القيروان من جهة وإلى الجزائر ووهران وتاهرت من جهة أخرى، فاختطها سنة 387 هـ ونقل إليها جماعة من أهل المسيلة وأهل حمزة وكذلك أهل جراوة من المغرب، وأمرهم جميعا بالبناء والتشييد، وعمرت في رأس السنة الرابعة، واستمر حماد في فتح الحصون والقري ويضمها إلى مملكته.

2.2.3.1. تأسيس بجاية (الناصرية): بعد الاضطرابات والنزاعات التي عرفتها الدولة الحمادية في عهد الناصر بن علناس، وخاصة بعد هزيمته في معركة سبيبة خلال الصراع بين الحماديين في المغرب الأوسط والزيريين في المغرب الأدنى. نهض الناصر من كبوته وأعاد الهدوء إلى دولته، فاختط مدينة بجاية لتكون عاصمة جديدة لدولته، سنة 460 هـ/1068 م، وسماها الناصرية، وبنى بها قصر اللؤلؤة، ونقل إليها الناس لتعميرها، وأسقط الخراج عن سكانها، من أجل أن تزدهر اقتصاديا، وانتقل إليها من القلعة سنة 461 هـ/1069 م، وشيد في عهده المباني العظيمة، وقضي على الثورات المناوئة له.

3.3.1. عصر الموحدين (القرن 12-13 م): عرف عصر الموحدين توسع المدن وتنظيم الفضاءات العامة، فالحواضر الأم التي حوت أقطاب العلم في المغرب الأوسط في العهد الموحدي، هي بجاية وتلمسان بفضل العلوم الدينية والتجارة، فنادرا ما تجد مدرسة أو زاوية أو رباطا يخلو من كتب العقائد، فانتشرت المجامع العلمية كالربط والزوايا والمساجد والمدارس العسكرية لتخريج الجند، وكثرت دور العلم والمعرفة في أغلب المدن ببلاد المغرب الإسلامي والأندلس.

لقد فقدت الحواضر القديمة في المغرب الأوسط كآشير وتاهرت مكانتها خلال العهد الموحدي لصالح مراكز أخري، حيث لم تنل عناية عبد المؤمن بن على وخلفائه، لكن بجاية وتلمسان في نظر الجغرافيين المسلمين تمثلان طرفا المغرب الأوسط، فبجاية تمثل البداية وتلمسان تمثل النهاية أو القفل، فقد كانتا ذات شهرة عالمية حتى قبل الموحدين، في عهد الحماديين والمرابطين، كما برزت حواضر أخري مثل قسنطينة ووهران وجزائر بني مزغنة وقلعة بني حماد وبونة ووركلا.

2. التحولات الديموغرافية وأثرها على المجال العمراني.

يتأثر المجال العمراني بالتحولات الديمغرافية، تبعا لزيادة أو نقصان عدد السكان في مكان ما، نتيجة الظروف المختلفة السائدة فيه، ويظهر ذلك في الديناميكيات السكانية، والتفاعل بين الديمغرافية والعمران، والقراءة السوسيولوجية للفضاء العمراني.

1.2. الديناميكيات السكانية: تعالج لنمو السكاني والتركيبة الديموغرافية، والهجرات والتحركات السكانية.

1.1.2. النمو السكاني والتركيبة الديموغرافية: تعد الديموغرافيا من العلوم الاجتماعية كتخصص مستقل يعرف بعلم السكان، يدرس حجم وبنية الساكنة البشرية، والظواهر ذات الصلة بالسكان، مثل المواليد والوفيات والهجرة، وكذلك دراسة العوامل التي تؤثر في هذه الظواهر. أي بقوم بالتحليل الإحصائي للسكان من خلال دراسة عددهم وتوزيعهم في منطقة ما، وتركيبتهم من حيث العمر والجنس، والتغيرات التي تطرأ عليهم والعوامل التي تؤدي إليها،

ويقسم السكان إلى فئات أو مجموعات، إحصائية حسب بنيتهم ونشاطهم المهني، والحالة الاجتماعية، كالزواج والإقامة في المدينة أو في الريف، وما يحدث في هذه البناءات من تغيرات.

2.1.2. الهجرات والتحركات السكانية: من الصعوبة ضبط الهجرات والتحركات السكانية في بلاد المغرب الأوسط، وتحديد حجمها وعواملها ونتائجها الديموغرافية، وتأثيرها على الكتلة السكانية في المنطقة، مع إمكانية تأثيرها على عدد السكان في حالة تغيير أماكن إقامتهم، وقد تناولتها المصادر التاريخية بشكل خاص في سياقات سياسية متعددة، ونذكر منها الهجرة الزناتية إلى المغرب الأقصى والأندلس في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وكذا الهجرة في عصر الدولة الموحدية حين تم تهجير القبائل الهلالية نحو المغرب الأقصى في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، بعدما كانوا قد استوطنوا المغرب الأوسط.

2.2. التفاعل بين الديموغرافيا والعمران: يتطرق إلى العلاقة التبادلية بين الديموغرافية والعمران، مع دراسة تلمسان كحالة نموذجية.

1.2.2. العلاقة التبادلية: كانت مدن المغرب الأوسط تتوفر على تتوفر على مؤهلات طبيعية واقتصادية تتمثل في كثرة الإنتاج الزراعي والحيواني ووجود نشاط تجاري، وساعد على ذلك توفر الموانئ والمصادر المائية كالعيون والأنهار، وهذا ما يفسر كثرة السكان بها تناسبا مع مع تحتويه من خيرات وثروات، لأنه كلما كان عدد السكان كبير كلما كانت الحاجة إلى توفير احتياجاتهم الغذائية وغيرها كبيرة، فبجاية في منتصف القرن 6 هـ/12 م، تميزت بنشاط تجاري وصناعي كبي.

وعبر الإدريسي عن هذا النشاط الاقتصادي بقوله: "كانت السفن والقوافل مقلعة ومنحطة إليها برا وبحرا والبضائع بها نافقة وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة والصناع ودار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن...وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق"، كما ذكر أن بجاية تتوفر على البوادي والمزارع وكثرة الحنطة والشعير وسائر الفواكه.

وتختص بلاد الزاب باحتوائها على أرباض خارج أسوارها، فالربض خارج كتلة المدينة أو خارج أسوارها من سمات كثرة السكان في مدن الإقليم الكبيرة، فالإمكانيات الطبيعية لمدن الزاب وتوسع عمرانها وأحيائها السكنية، يوضح لنا أن مدينة طبنة كانت تحتوي على فحص فسيح وبساتين وأرباض واسعة، كما وجدت أرباض حول مدينة بسكرة خارج خندقها، وعرفت مدينة تهودا بكثرة أرباضها خارج خندقها، وأرباض مدينة بادس الواسعة، وكثرة القري حول مدينة بنطيوس يدل على كثرة سكان هذه المدن. ويذكر صاحب الاستبصار أن بلاد الزاب تحتوي على مدن كبيرة لها أرباض واسعة وبسائط كثيرة وحولها حصون كثيرة وقري عامرة.

2.2.2. دراسة حالة: مدينة تلمسان: تميزت مدينة تلمسان بإمكانيات طبيعية واقتصادية معتبرة، أثرت على ارتفاع عدد سكانها، الذين يتكونون من بقايا النصارى وعدد متوسط من البربر والتجار الأجانب القادمين إليها من كل مكان، وتنتشر حولها قبائل بربرية من زناتة وغيرها، وتحوطها قري ذات عمائر متصلة وكثيرة الثمار والأنهار، وتوسعت المدينة عمرانيا في عهد المرابطين ببناء مدينة تاقرارت سنة 462 هـ/1070 م، وذكر الإدريسي بأن لتلمسان سور حصين، وهي مدينتان في واحد يفصل بينهما سور، وغلالها ومزارعها وخيراتها شاملة.

ولاستشفاف العلاقة بين المؤهلات الاقتصادية لمدينة تلمسان وعلاقتها بارتفاع عدد السكان، هناك نص للعبدري يكشف عن تراجع عدد سكان المدينة نهاية القرن 7 هـ/13 م، حيث قال عنها: "وتلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية بها أسواق قائمة وأقطار متسعة ومبانيها مرتفعة ولكنها مساكن بلا ساكن ومنازل بلا نازل".

3.2. القراءة السوسيولوجية للفضاء العمراني: تدرس العمران كمنتج اجتماعي، والعمران كمنتج للعلاقات الاجتماعية.

1.3.2. العمران كمنتج اجتماعي: عندما شرع زيري بن مناد في بناء مدينة آشير سنة 324 هـ/936 م، ولتعميرها سكنها وأصحابه ونقلوا إليها سكان من طبنة والمسيلة وسوق حمزة، أغلبهم من العلماء والتجار، فتعمير المدن الناشئة بالتجار تقف ورائه رغبة الحكام في توفير البضائع والسلع لأنفسهم ولجيوشهم، لذلك قام زيري بن مناد بجلب التجار إلى مدينة آشير

فازدهرت في وقت قصير مما جعل الناس يقبلون للسكن فيها، واستمر ارتفاع عدد سكانها عن طريق تهجير سكان مناطق أخري إليها، فقد قام بلكين بن زيري بترحيل زناتة من تلمسان إليها سنة 362 هـ/973 م بسبب الاضطرابات التي أحدثوها في منطقة الغرب بداية حكمه بلاد المغرب، ونظرا لكثرة عددهم بنو بالقرب من أشير مدينة أسموها بلنسان أو تلمسان.

ونفس الأحداث السياسية كانت وراء بناء مدينة قلعة بني حماد وتعميرها، فلما انتصر حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي في حروبه مع زناتة، تشجع على الاستقلال بالمغرب الأوسط، أيام باديس بن أخيه المنصور، فاختط القلعة سنة 398 هـ/1007 م، ولما شيدها نقل إليها سكان مدينتي المسيلة وسوق حمزة بعد أن خربهما، واستقدم قبيلة جراوة بأكملها من المغرب الأقصى، وتوافد عليها طلاب العلم وأرباب الصنائع، واستكثر فيها من العمران، فارتفع عدد سكانها، فقبيلة جراوة وحدها كانت تسكن في حي خاص بها سمي باسمها، مما يدل على ارتفاع عددها مقارنة ببقية سكان المدينة.

2.3.2. العمران كمنتج للعلاقات الاجتماعية: تكون النسيج العمراني لمدينة تاهرت خلال العهد الرستمي، من عدة أجناس كالعرب والمغاربة والسودانيين والنصارى واليهود، والذين كان أغلبهم تجارا استوطنوا المدينة ومارسوا التجارة فيها حتى نهاية القرن 4 هـ/10 م، وشكلوا جالية تجارية أصبح لها وزن ديموغرافي معتبر في المدينة، فكثرة التجارة مؤشر اقتصادي مهم في زيادة عدد السكان، لأنها اشتهرت آنذاك بائتمان الناس على أنفسهم وأملاكهم، فعرفت توافد الهجرات منذ عهد الإمام الأول الذي بلغت صمعته وعدله وسيرته الحسنة المغرب والمشرق.

1. قائمة المراجع.

1.1. باللغة العربية.

. المعجم العربي الأساسي. (1989). *طبعة لاروس*. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

. الموسوعة العربية العالمية. (1999). الرياض، السعودية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع.

. معجم الصواب اللغوي. (2008). معجم *الصواب اللغوي* (ط 1). القاهرة: عالم الكتب.

. معجم اللغة العربية المعاصرة. (2008). عالم الكتب.

إبراهيم وداد محمد. (9, 2024). المنشات العمرانية والحضارية في القيروان في العهد الأموي . (قسم التاريخ بجامعة الزنتان – ليبيا، المحرر) *مجلة القرطاس، 3*(25)، الصفحات 298-326.

ابن عبد الرحمن ابن خلدون. (1981). *العِبَر و ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر* (ط 1، المجلد 1 و6 و7). بيروت: دار الفكر.

إدريس الهادي روجي. (1992). *الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلي القرن 12 ميلادي* (ط 01، المجلد 02). (حمادي الساحلي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.

الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله (ت 560 هـ). (2002). *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

استكشاف مدن المغرب. (01 04, 2026). تم الاسترداد من بناء جامع الكتبية: رمز العمارة الموحدية في مراكش: https://www.villesmaroc.com/2025/06/

الأعرجي نضال مؤيد مال الله عزيز. (2004). الدولة المرينية علي عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني 685-706 هـ/1286-1306 م: دراسة سياسية وحضارية. *رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي*. كلية التربية جامعة الموصل، العراق.

بان علي محمد. (أفريل, 2025). النشاط العمراني في المغرب 448 -668هـ/ 1056- 1269م. *حوليات آداب عين شمس، 53*(02)، الصفحات 158-174.

بن رحّو عبد الطيف. (27 03, 2023). *اعتناء بني مرين ببناء المدارس العلمية/ المؤسسات التعليمية*. تم الاسترداد من منار الإسلام: https://islamanar.com/educational-institutions/

بن عامر أحمد. (بلا تاريخ). *الدولة الحفصية صفحات خالدة من تاريخنا المجيد*. تونس: دار الكتب الشرقية.

بن موسى محمد، وتجانت مراد. (أكتوبر, 2022). الكوارث الطبيعية وأثرها على مجتمع المغرب الأوسط ما بين القرنين (3-6 هـ/9-12). *مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، 06*(02)، الصفحات 740-760.

بوبيدي حسين. (11 10, 2021). أ.د. علاوة عمارة: الفاطميون والمغرب الأوسط: التوجه الساحلي للسلالة الحاكمة وأنماط التحكم في المجالات (ترجمة). *مجلة مدارات تاريخية، 03*(03)، الصفحات 34-64.

بورويبة رشيد. (1977). *الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

بوزاد فاطمة. (ماي, 2022). المناخ مدخل لدراسة البنيات الذهنية للمجتمع المغربي خلال العصر الوسيط. *مجلة ليكسوس*(42).

جلولي رقية، و بلاغ عبد الرحمان. (11 06, 2022). جوانب من التنظيم العمراني لمدن الأندلس من خلال نوازل " الأحكام الكبرى" لابن سهل "حاضرة قرطبة نموذجا". *الساورة للدراسات الانسانية والاجتماعية، 08*(01)، الصفحات 100-118.

الحاحي محمد بن محمد أبي عبد الله (ت 725 هـ/1325) البلنسي. (2007). *الرحلة المغربية* (ط 01). (تقديم سعد بوفلاقة، المترجمون) بونة، الجزائر: منشورات بونة للبحوث والدراسات.

خزعل ياسين مصطفي. (15 01, 2009). الكوارث والظواهر الطبيعية بالأندلس وآثارها على المجتمع في عصري الإمارة والخلافة (138-422 هـ/755-1030 م). *آداب الرافدين*(54).

خلاف محمد عبد الوهاب. (1983). *وثائق في شئون العمران في الأندلس: المساجد والدور* (ط 01). القاهرة: المركز العربي الدولي للإعلام.

رقي ربيع. (30 06, 2021). دور حواضر المغرب الأدنى في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية. *حوليات التاريخ والجغرافيا، 10*(01)، الصفحات 47-64.

زاوية سليم. (10 12, 2019). أرباض المدن العربية الإسلامية القديمة: دلالات عمرانية وسوسيو–ثقافية بعض مدن المغرب الأوسط أنوذجا. *مجلة العلوم الإنسانية*(52)، الصفحات 253–268.

الزركشي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللولوي. (1289 هـ). *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية*. مطبعة الدولة التونسية المحروسة.

الزغدودي ناجح. (18 12, 2009). *القيروان: صبرة المنصورية أو عاصمة الفاطميين المعمورة... تحت التراب مطمورة*. تم الاسترداد من تورس:
https://www.turess.com/alchourouk/154138

الزليطي نوري عبد الوهاب عبد الجواد. (25 02, 2026). التأثيرات السياسية والاجتماعية لهجرات قبائل بني هلال وبني سليم علي المغرب الأوسط في القرن الخامس والسادس الهجري. *مجلة القرطاس، 07*(28)، الصفحات 323–341.

زيتون محمد محمد. (1988). *القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية* (ط 1). القاهرة: دار المنار.

سالم السيد عبد العزيز. (يونيو, 1977). *مجلة عالم الفكر، 08*(01)، صفحة 89–166.

السامرائي خليل إبراهيم ، عبد الواحد ذنون طه، و ناطق صالح مصلوب. (2000). *تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس* (المجلد 01). بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.

سجيتي فايزة محمد صلاح أمين. (1981). غزو بني هلال وبني سليم للمغرب. مكة المكرمة، السعودية: جامعة الملك عبد العزيز.

سعد إبراهيم محمد آل مصطفى. (08 04, 2025). دوافع نشأة المدن العربية الإسلامية مدينة المهدية الفاطمية في افريقية إنموذجا 300 – 308هـ. *مجلة كلية التربية للعلوم الإنسانية، 14*(01)، الصفحات 22–31.

سعدون عباس نصر الله. (1985). *دولة المرابطين في المغرب والأندلس: عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين* (ط 01). بيروت: دار النهضة العربية.

السواط وصل الله بن عبد الله حمدان. (جويلية, 2012). اسواق المغرب الأقصى عصر دولة الموحدين من سنة(609/541هـ –1212/1145م). *مجلة كلية الآداب.جامعة بنها، 29*(02)، الصفحات 325–375.

سي محمد النوي. (3 6, 2025). أثر قاعدة الضرر يزال في تنظيم المدينة الإسلامية. *مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، 10*(1)، الصفحات 40-58.

شبوح إبراهيم. (أكتوبر, 2009). *ذاكرة العرب*(3).

شقدان بسام كامل عبد الرزاق. (2002). تلمسان في العهد الزياني 633 -962 هـ/1235-1555 م. *رسالة ماجستير في التاريخ بكلية االدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية*. نابلس، فلسطين: جامعة النجاح الوطنية.

صابر حفيظة، و مرتاض محمد. (03 06, 2023). معالم الحضارة في الفترة الأموية بالأندلس- العمارة أنموذجا-. *المعيار، 14*(01)، الصفحات 325-336.

صديقي بلقاسم. (05 جوان, 2017). هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب 15-17 م: الدوافع والمراحل. *المجلة المغاربية للمخطوطات*(05)، الصفحات 81-117.

الصلابي علي محمد. (2006). *الدولة الفاطمية* (ط 01). القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة.

الصلابي علي محمد. (2009). *تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي* (ط 03). بيروت، لبنان: دار المعرفة.

الطمار محمد. (2010). *المغرب الأوسط في ظل صنهاجة*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

طه عبد المقصود عبد الحميد عبية. (بلا تاريخ). *موجز تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة*. القاهرة: جامعة القاهرة.

العامري علي فيصل عبد النبي. (2007). السياسة الخارجية للدولة الفاطمية 358-427 هـ/968-1035 م. *رسالة ماجستير*. كلية الاداب، العراق: جامعة الكوفة.

العتيري نضال خليفة. (11 05, 2025). السياق التاريخي لهجرة بني هلال لشمال إفريقيا. *مجلة القرطاس، 06*(27).

عثمان محمد عبد الستار. (1988). *المدينة الإسلامية*. الكويت: سلسلة عالم المعرفة.

عثمان محمد عبد الستار. (2006). *موسوعة العمارة الفاطمية: الحربية والمدنية والدينية* (ط 01). القاهرة: دار القاهرة.

عزب خالد محمد مصطفى. (1997). *تخطيط وعمارة المدن الإسلامية* (ط 01). الدوحة، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

عزب خالد. (1997). *فقه العمران* (ط 1). القاهرة، مصر: دار النشر للجامعات.

عزب محمد زينهم محمد. (1988). *تاريخ مملكة الأغالبة لابن وردان* (ط 01). القاهرة: مكتبة مدبولي.

عشي علي. (2012). المغرب الأوسط في عهد الموحدين دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية. *ماجستير في التاريخ الوسيط*. باتنة، الجزائر: جامعة الحاج لخضر باتنة.

علام عبد الله علي. (1968). *الدولة الموحدية في المغرب في عهد عبد المؤمن بن علي*. القاهرة، مصر: دار المعارف.

علوي مصطفى. (ديسمبر, 2012). الحياة الثقافية في المغرب الأوسط من خلال كتابات الرحالة والجغرافيين المغاربة خلال القرنين السابع والتاسع الهجريين الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين. *دورية كان التاريخية*(18)، الصفحات 74-80.

علي وسام طاهر، و بوحساين نصر الدين. (21 12, 2023). تأصيل مصطلحات العمارة الإسلامية (العمارة الدينية و المدنية أنموذجا). *الصوتيات، 19*(02)، الصفحات 245-264.

عنان محمد عبد الله. (1997). دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر (ط 04). القاهرة: مكتبة الخانجي.

العيدروس محمد حسن. (2011). *العصر الأندلسي: العمارة والفنون الأندلسية في غرناطة وطليطلة وقرطبة* (ط 01). القاهرة: دار الكتاب الحديث.

عيساوي محمد. (ديسمبر, 2018). الكوارث الطبيعية على بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين (7-9 هـ/13-15 م). *مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، 02*(02)، الصفحات 229-244.

الغزالي محمد بن محمد. (1993). دار الكتب العلمية.

فتحي محمد فتحي . (15 03, 2009). الموحدون والحركة الثقافية في المغرب الإسلامي. *الحوار المتوسطي، 01*(01)، الصفحات 51-58.

قاسمي فوزية. (2025). التحولات الديمغرافية في بلاد المغرب الأوسط من القرن . *أطروحة دكتوراه في تاريخ وحضارة الغرب الإسلامي في العصر الوسيط*. باتنة، قسم التاريخ والاثار، الجزائر: جامعة باتنة 1 الحاج لخضر.

كرو أبو القاسم محمد. (1989). *عصر القيروان* (ط 02). دمشق، سوريا: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

لعربي لخضر. (26 12, 2024). أساليب البناء بالمغرب الأوسط على العهد الزّياني(ق7- 10هـ) مدينة تلمسان أنموذجا. *مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية، 08*(04)، الصفحات 405-420.

مالدونادو باسيليون بابون. (2010). *العمارة الإسلامية في الاندلس: عمارة القصور عصر المرابطين والموحدين* (ط 01). (علي إبراهيم المنوفي ، المترجمون) القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة.

الماوردي علي بن محمد. (1981). *تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك*. (تحقيق: محي هلال سرحان، المترجمون) بيروت: دار النهضة العربية.

المترجي البدالي. (15 جويلية, 2021). مفهوم العمران في ضوء القرآن. *الأثر، 18*(1)، الصفحات 242-257.

مفتاح عثمان، و تاني سفيان بوزيري. (31 12, 2024). العمارة العسكرية بقلعة بني حماد وتأثيرها على العمارة العسكرية المرابطية. *مجلة الدراسات الأثرية، 22*(01)، الصفحات 70-84.

ملاس حسيبة ، و منكول فاطمة. (31 03, 2023). تجليات البعد الاجتماعي والديني في عمارة المدينة العربية الإسلامي – حي القصبة العتيق بالجزائر أنموذجا –. *Aleph، 10*(02)، الصفحات 347-364.

مهاوش خليل جليل بخيت ، و خالدة عباس نصيف جاسم . (2017). المرابطون وأثرهم الحضاري والفكري في بلاد الأندس من 479 هـ إلى 556 هـ. *مجلة الأستاذ، 01*(220)، الصفحات 295-318.

الموسوعة الحديثية. (10 03, 2026). تم الاسترداد من الموسوعة الحديثية: https://dorar.net/hadith/sharh/23413

مؤلف مجهول (حيا سنة 587 هـ/1192) صاحب الاستبصار. (بلا تاريخ). *الاستبصار في عجائب الأمصار*. (نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، المترجمون) بغداد: دار الشؤون الدينية.

ميهوبي علي. (2023). مقاصد العمران. *مجلة الشريعة والاقتصاد، 12*(1).

الناصيري عبد الواحد. (نوفمبر, 2023). الأوبئة بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط: قراءة في الأسباب والمظاهر. *مجلة المعرفة*(10)، الصفحات 657-679.

وانس صلاح الدين. (2016). تنظيم العقار في الأندلس خلال عهد الموحدين: الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية. *أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ والحضارة الإسلامية*. قسم الحضارة الإسلامية، الجزائر: جامعة وهران .

يزداني رضوان. (مارس, 2025). عصر ملوك الطوائف. *مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، 02*(28)، الصفحات 325-342 .

يزمي زطايط محمد. (fervrier, 2022). كرونولوجية الفيضانات التاريخية بوادي سبو الأوسط: إقليم مولاي يعقوب، وفاس، والمغرب. *Revue Espace Geographique et Sociéte marocaine*(57)، الصفحات 189-197.

2.1. المراجع باللغة الأجنبية.

Golvin , L. (1979). Mahdya à la période Fatimide. *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*(27), pp. 75-98.

Ilham Ibnouzahir .(2024) .Crafting Ambiguity: The Duality of Religious Expression in Almohad Architecture .*Journal of Literature Advances ، 01*(01)، الصفحات 1-13.

Le Tourneau , R. (1969). Une nouvelle étude sur les Almoravides. *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée,*(06), pp. . 173-175.

Lézine , A. (1954). Note sur le « ribat » de Monastir. *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 98e année*(02), pp. 142-143.

Marcos Cobaleda, M., & Gutiérrez-Carrillo, M. (2021). Almoravid Works on Defensive Architecture in Southeast Al-Andalus: Analysis of Their Remains and Proposal for Preventive Conservation. *Sustainability, 13*(24).

Saladin, H. (1909, Jui). La kalaa des Beni-Hammad. *Journal des savants. 7e année,*, pp. 255-260.

Samadi, N. (2012). La mosquée de Cordoue. IESR - Institut d'étude des religions et de la laïcité. Consulté le 01 30, 2016, sur : https://irel.ephe.psl.eu/ressourcespedagogiques/fiches-pedagogiques/mosquee-cordoue

Saoud, R. (2002). *ntroduction to the Islamic City.* UK: FSTC Limited.

فهرس المحتويات.

مقدمة.....6

المحاضرة (01): مفاهيم العمران بين النصوص التاريخية والشواهد المادية.....8

1. مدخل إلى مفهوم العمران. 8

1.1. مفهوم العمران لغة واصطلاحا:.....8

2.1.العمران في المصادر الإسلامية: 9

2. الفرق بين العمران والعمارة.....9

3. المصطلحات الوسيطية حول المدينة الإسلامية. 9

4. شروط قيام المدن الإسلامية: 10

5. القيروان نموذج لمدينة من الغرب الإسلامي. 11

1.5. تأسيس مدينة القيروان: 11

2.5. الدراسة العمرانية لمدينة القيروان: 12

1.2.5. تخطيط المدينة:.....12

2.2.5. مركز المدينة (المسجد ودار الإمارة):. 12

3.5. المنشآت العامة للمدينة: 13

1.3.5. الأسواق:.....13

2.3.5. نظام المياه:.....13

3.3.5. الحمامات: 13

4.3.5. المقابر:.....13

المحاضرة (02): العمران في الفكر الإسلامي. 14

1. مفهوم العمران في الفقه الإسلامي. 14

2. القواعد الشرعية للعمران. 14

3. المقاصد الشرعية في العمران. 15
2.3. حفظ الضروريات الخمسة:. 16
3.3. تحقيق المصلحة العامة:. 16
4.3. إقامة العدل ودرء الفساد:. 16
5.3. التعاون والتكافل الاجتماعي: 16
6.3. تحقيق النظام في الحياة:. 16
4. القواعد الفقهية المنظمة للعمران. 17
1.4. قاعدة لا ضرر ولا ضرار:. 17
2.4. فقه الجوار: 17
3.4. تنظيم الطرق والأسواق: 17
4.4. حق الملكية والعقار:..... 18
5. دور الفقه الإسلامي في تخطيط المدن. 18
1.5. تخطيط الأحياء السكنية:. 18
2.5. المسجد كمركز عمراني: 19
3.5. تنظيم الأسواق:..... 19
4.5. المرافق العامة:..... 20
1.4.5. الحمامات: 20
2.4.5. السقايات:..... 21
3.4.5. المنشآت الخدمية:. 21
المحاضرة (03): العمارة في الغرب الإسلامي: الأنواع الوظيفة والشواهد المادية. 22
1. العمارة الدينية. 22
1.1. نماذج من العمائر الدينية:..... 22
1.1.1. جامع القيروان: 22

2.1.1. جامع قرطبة:. 24
2. العمارة المدنية..... 26
1.2. نماذج من العمارة المدنية:..... 26
1.1.2. قصر الإمارة (الخلافة):..... 26
2.1.2. الدور: 27
3.1.2. الحمامات:. 27
3. العمارة العسكرية..... 28
1.3. نموذجان من العمائر العسكرية:. 28
1.1.3. قلعة بني حماد:..... 28
2.1.3. رباط النستير:..... 30
4. الجوانب الوظيفية في عمارة الغرب الإسلامي. 30
5. العمارة كرمز للسلطة..... 31
المحاضرة (04): التطور العمراني من الفتح الإسلامي إلى العصر الفاطمي..... 33
1. مراحل التطور العمراني في الغرب الإسلامي. 33
1.1. مرحلة التأسيس من الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر الولاة: 33
2.1. نشأة المدن والمراكز العسكرية الإسلامية الأولي..... 33
1.2.1. القيروان: 33
2.2.1. رباط المنستير:..... 34
3.1. نشأة التنظيم الإداري والعمراني:..... 35
2. مرحلة التوسع والازدهار في العصر الأغلبي..... 36
1.2. اتساع وتكثف العمران: 36
2.2. تطور المنشآت المعمارية:..... 37
3. مرحلة التحول وإعادة التمركز في العصر الفاطمي..... 37

1.3. انتقال الثقل العمراني نحو السواحل: 38
2.3. تأسيس المهدية كعاصمة جديدة: 38
المحاضرة (05): العمران في الأندلس: مراحل تطوره وخصائصه 40
1. مراحل تطور العمران في الأندلس. 40
1.1. نشأة العمران مع الفتح الإسلامي واستغلال المدن القديمة:. 40
2.1. العمران وتطوره وازدهاره في العهد الأموي:. 41
3.1. العمران وتحولاته خلال فترة ملوك الطوائف: 42
4.1. العمران وإعادة تنظيمه مع المرابطين والموحدين: 43
2. العمران الأندلسي وخصائصه. 44
3. النماذج التطبيقية للعمران الأندلسي والعوامل المؤثرة فيه. 44
1.3. التأثيرات المشرقية والبينية: 44
2.3. تأثير العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تشكل المدن:. 45
3.3. التمازج بين التأثيرات المشرقية والخصوصيات المحلية:. 45
المحاضرة (06): العمران عند الفاطميين في بلاد المغرب الإسلامي: مراحله وخصائص تطوره. 47
1.مراحل تطور العمران الفاطمي في بلاد المغرب. 47
2.1. مرحلة مدينة المهدية: 48
3.1. مرحلة مدينة المنصورية: 49
2. خصائص التطور العمراني الفاطمي في بلاد المغرب الإسلامي. 50
1.2. الخصائص التخطيطية: 50
2.2. الخصائص الدفاعية: 51
3.2. الخصائص المعمارية: 53
1.3.2. مواد البناء المحلية: 53
2.3.2. التحصينات الدفاعية (الأسوار والأبواب والخنادق):. 53

3.3.2. العناصر المعمارية (الأقواس والمداخل): 54
4.3.2. القصور المغلقة (قصر الخلافة وقصر القائم بأمر الله بالمهدية):. 55
المحاضرة (07): تطور العمران عند الزيريين والمرابطين والحماديين: مراحله وخصائصه. 56
1. العمران عند الزيريين. 56
1.1. المراحل العمرانية: 56
2.1. مظاهر التطور العمراني:. 57
3.1. الخصائص العمرانية: 57
2. العمران عند المرابطين. 58
1.2. المراحل العمرانية:. 59
2.2. مظاهر التطور العمراني:. 60
3. العمران عند الحماديين..... 63
1.3. المرحلة العمرانية:. 63
2.3. مظاهر التطور العمراني:. 64
3.3. الخصائص العمرانية: 65
المحاضرة (08): تطور العمران عند الموحدين: مراحله وخصائصه. 66
1. المراحل العمرانية. 66
1.1. مرحلة التأسيس:. 66
1.1.1. تينمل النواة العمرانية الأولي للموحدين:..... 67
2.1.1. استغلال العمران في توطيد الدعوة الموحدية:. 67
2.1. مرحلة التوسع والازدهار:. 67
1.2.1. الاستيلاء علي الحواضر الكبرى (مراكش وإشبيليا): 68
2.2.1. المشاريع العمرانية (مساجد وأسوار وقصور ومدن): 69
3.2.1. إنتاج تقنيات معمارية مغربية:..... 70

2. مظاهر التطور العمراني..... 70
1.2. التخطيط العمراني:..... 70
1.1.2. تنظيم المدن حسب الوظائف:..... 70
2.1.2. شق الطرق وبناء القناطر والأسواق: 71
3.1.2. الفصل بين المجالات العمرانية:..... 72
2.2. المنشآت المعمارية الكبرى:..... 72
1.2.2. الجوامع:..... 72
2.2.2. القصور:..... 74
3. الخصائص العمرانية. 75
المحاضرة (09): مراحل وخصائص التطور العمراني عند الزيانيين والمرينيين والحفصيين. 76
1. العمران عند الزيانيين..... 76
1.1.المراحل العمرانية: 76
1.1.1.مرحلة التأسيس (1236-1318 م):..... 77
2.1.1. مرحلة الازدهار (1318-1399 م): 77
3.1.1. مرحلة الضعف (1399-1574 م):..... 78
2.1. مظاهر التطور العمراني:. 78
3.1. الخصائص العمرانية:..... 79
2. العمران عند المرينيين. 80
1.2. المراحل العمرانية: 80
1.1.2. مرحلة التأسيس والتوسع (1244-1310 م):..... 80
2.1.2. مرحلة الازدهار (1310-1420 م): 81
3.1.2. مرحلة الضعف (1420-1465 م):..... 81
2.2. مظاهر التطور العمراني: 82

3.2. الخصائص العمرانية: 83
3. العمران عند الحفصيين. 84
1.3. المراحل العمرانية: 84
1.1.3. مرحلة التأسيس والاتساع (627-700 هـ/1229-1301 م): 84
2.1.3. مرحلة الازدهار (700-757 هـ/1301-1373 م): 85
3.1.3. مرحلة الضعف (775-982 هـ/1373-1574 م): 87
2.3. مظاهر التطور العمراني. 88
1.2.3. المنشآت المائية: 88
2.2.3. المساجد والجوامع: 88
3.2.3. المدارس التعليمية: 89
4.2.3. القصور والمنازه: 89
5.2.3. الأسوار والأبواب والقصبات: 89
6.2.3. الأسواق والحمامات: 89
7.2.3. المستشفيات (البيمارستانات): 89
8.2.3. الجسور: 90
المحاضرة (10): الكوارث الطبيعية وانعكاساتها على البنية العمرانية في الغرب الإسلامي. 91
1. السياق التاريخي للكوارث الطبيعية في الغرب الإسلامي. 91
1.1.تصنيفات الكوارث الطبيعية: 92
1.1.1. القحط والجفاف: 92
2.1.1. الرياح والأعاصير: 92
3.1.1. الفيضانات والسيول: 92
4.1.1. الزلازل: 92
5.1.1. الحرائق: 93

6.1.1. الأوبئة والأمراض:..... 93
2.1. المناطق المتأثرة بالكوارث الطبيعية في الغرب الإسلامي: 93
3.1. نماذج من الحالات التاريخية الموثقة: 94
2. الانعكاسات العمرانية للكوارث الطبيعية واستراتيجية التكيف. 95
1.2. تخطيط المدن في الغرب الإسلامي: 96
2.2. الأنماط العمرانية ومواد وتقنيات البناء:. 97
3.2. دور البني العمرانية أثناء الكوارث الطبيعية:..... 98
المحاضرة (11): حروب وهجرات العرب الهلالية وأثرها على المدن. 100
1. السياق التاريخي للهجرة الهلالية..... 100
1.1. السياق السياسي: 101
1.1.1. ضعف الخلافة الفاطمية وانشغالها بالشام:..... 101
2.1.1. انهيار الدولة الصنهاجية في إفريقية: 101
3.1.1. موقف المعز بن باديس والتحول المذهبي:..... 101
2.1. السياق الاقتصادي: 102
3.1. السياق القبلي:..... 103
2. طبيعة الحروب والتحركات القبلية. 104
1.2. مراحل التحرك العسكري:. 104
1.1.2. المرحلة الأولى (1050-1052م): 105
2.1.2. المرحلة الثانية (1052-1057م): 106
3.1.2. المرحلة الثالثة (1057-1080م): 106
2.2. خصائص الغزو الهلالي: 107
3. تأثير الهجرات الهلالية على المدن. 108
1.3. التأثير العمراني:..... 108

2.3. التأثير الاجتماعي: 108
3.3. التأثير الاقتصادي: 108
المحاضرة (12): حروب وهجرات الأندلسيين وأثرها على المدن..... 109
1. الحروب في الأندلس وتأثيرها على العمران. 109
1.1. تأثيرها على عمران مدن الحدود (الثغور): 109
2.1. سقوط الحواضر والمدن الكبرى:..... 110
3.1. نموذج غرناطة. 111
1.3.1. تحويل القصبة والحمراء لمراكز قيادة عسكرية:..... 111
2.3.1. دور الشبكة المائية في الحصار:. 112
3.3.1. الهجرة كاستراتيجية للهروب من الاضطهاد:..... 112
2. الهجرات الأندلسية وتأثيرها على المدن المغربي. 113
1.2. أنماط الهجرة: 114
1.1.2. الهجرة القسرية: (سقوط غرناطة): 114
2.1.2. الهجرة الطوعية:. 115
2.2. الأقاليم المستقبلة للمهاجرين الأندلسيين: ل 115
1.2.2. المغرب الأقصى: 115
2.2.2. المغرب الأوسط (الجزائر):..... 116
3.2.2. المغرب الأدنى (تونس):..... 116
3.2. تأثير الهجرات الأندلسية على مدن بلاد المغرب: 117
1.3.2. من الناحية العمرانية:. 117
2.3.2. من الناحية الاقتصادية: 117
3.3.2. من الناحية الثقافية: 117
المحاضرة (13): العمران والديموغرافيا في المغرب الأوسط. 118

1.العمران وتطوره. 118
1.1. مكونات الأماكن وأنماطها العمرانية:..... 118
1.1.1. المدن كمراكز للتبادل: 119
2.1.1. الاستيطان الريفي: 119
3.1.1. الترحال في البوادي:..... 119
2.1. التطور العمراني والعوامل المؤثرة فيه: 119
1.2.1. العامل السياسي:..... 119
2.2.1. العامل الاقتصادي: 120
3.2.1. العامل البيئي: 120
4.2.1. العامل العسكري:. 120
3.1. التحولات العمرانية ومراحلها التاريخية:..... 121
1.3.1. العصر الوسيط المبكر (القرن 7–10 م): 121
2.3.1. عصر الإمارات (القرن 11–12 م):..... 122
3.3.1. عصر الموحدين (القرن 12–13 م): 123
2. التحولات الديموغرافية وأثرها على المجال العمراني..... 123
1.2. الديناميكيات السكانية: 123
1.1.2. النمو السكاني والتركيبة الديموغرافية: 123
2.1.2. الهجرات والتحركات السكانية: 124
2.2. التفاعل بين الديموغرافيا والعمران:..... 124
1.2.2. العلاقة التبادلية:..... 124
2.2.2. دراسة حالة: مدينة تلمسان:..... 125
3.2. القراء السوسيولوجية للفضاء العمراني: 125
1.3.2. العمران كمنتج اجتماعي:..... 125

2.3.2. العمران كمنتج للعلاقات الاجتماعية:..... 126

قائمة المراجع. 127